الفاتيكان
والعلاقات مع الإسلام

تأليف
د. محمد السماك

ONOREM PRINCIPIS APOST PAVLVS V BVRGHESIVS ROMA





مقدمة

«لكي نفهم الإنسان الآخر يجب أن لا نستولي عليه وندمجه فينا، بل يجب أن نكون ضيوفه».

المستشرق لويس ماسينيون

قد تكون العلاقات بين الإسلام والفاتيكان من أشد العلاقات تعقيداً، وربما يعود ذلك إلى أن الفاتيكان كان يجمع بين الدين والدولة. كان البابا يتوّج الملوك أو يطيح بهم، وكان للفاتيكان جيش وقوات بحرية. وكان في الوقت ذاته رأس الكنيسة الكاثوليكية وحامي حمى المسيحية، ولذلك ما كانت خلافاته أو صراعاته مع الآخرين مجرد خلافات أو صراعات سياسية، بل كانت دينية أيضاً، وفي هذا الإطار تقع الحملات الصليبية (حملات الفرنجة) على الشرق.

وكذلك الأمر بالنسبة للإسلام، فالفتوحات العربية باتجاه إسبانيا (الأندلس) جرت تحت مظلّة إسلامية، والتوسعات العثمانية باتجاه البلقان (حتى ڤيينا) جرت تحت مظلة إسلامية أيضاً. أضفى التداخل بين الديني والسياسي على العلاقات بين الإسلام والفاتيكان أبعاداً خطيرة وترك آثاراً عميقة، وجاءت الحركات الاستعمارية الغربية للشرق، بعد ذلك، لتضخ الحياة في هذه الآثار قبل أن تندثر وتزول، من ذلك، مثلاً، ما ردّده الجنرال البريطاني اللنبي، لدى دخول القوات البريطانية مدينة

القدس : «الآن انتهت الحروب الصليبية». ومنها ما ردده الجنرال الفرنسي غورو لدى احتلال القوات الفرنسية مدينة دمشق : «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

لم تُفتح الطريق أمام إمكانية التلاقي الإسلامي مع الفاتيكان إلا بعد أن جرى فكُّ الارتباط بين الدين والدولة. فالفاتيكان تخلى - أو حُمل على التخلي - عن دوره السياسي ليتفرغ لرسالته الرعوية الدينية، وقامت في العالم العربي الدول الوطنية الحديثة، وأقصى ما ذهب بعضها إليه، هو إما اعتماد الشريعة مصدراً من مصادر التشريع أو إعلان الإسلام ديناً لرئيس الدولة، إلا أن كلَّ هذه الدول صاغت لنفسها دساتير وأنظمة وقوانين مستوحات في معظمها من مثيلاتها في الدول الأوروبية.

فتحت هذه التحولات الطريق أمام مدّ جسر من التفاهم بين الفاتيكان والإسلام؛ حدث ذلك، كما سنبين في الفصل الثاني من هذه الدراسة الموجزة، في المجمع الفاتيكاني الثاني الذي أعلن قراراته في عام ١٩٦٥.

كان رجال الدين المسيحيون ينظرون إلى الإسلام على أنه «مِنْ عملِ الشيطان» (؟). ومن مؤشرات ذلك، الرسالة التي وجّهها أسقف فرنسا هيو كلوني (Hugh de Cluny) (١٠٤٩ - ١١١٩) إلى الملك المقتدر بالله، ملك ساراغوسا، ودعاه فيها إلى اعتناق المسيحية، على أساس «أن الشيطان ضلّل أبناء إسماعيل مما سيؤدي الى هلاك المسلمين في نار جهنم». يومها أوعز الملك إلى أحد العلماء المسلمين، وهو أبو الوليد سليمان خلف الباجي، للرد على رسالته . . وجاء ردُّ الباجي مسفِّهاً لما ورد في رسالة الأسقف الفرنسي، وبنى على قاعدة هذا التسفيه دعوة الأسقف الى الإسلام . .

وفي العهد البيزنطي نشر المؤرخ جورج هامرتولوس (George Hamartolos) كتاباً عن تاريخ الإنسانية، خصَّص فصلاً منه، هو الفصل ٢٣٥، للإسلام، وقد زعم المؤلف في كتابه أن الإسلام يقوم على دعوة «مدَّعي نبوة» (؟) وأن أتباعه المسلمين مُشَوَّشو العقل، يرفضون التعرف على الحقيقة المتمثلة في الدين الصحيح وهو المسيحية.

تواصلت هذه الصورة في الثقافة الغربية العامة عبر القرون حتى أصبحت جزءاً من قاعدة إيمانية ثابتة، غير أن المجمع الفاتيكاني الثاني انقلب من الداخل على هذه الثقافة ونسف الأسس التي تقوم عليها، ويبدو ذلك واضحاً في الفقرة رقم ١٦ من نص (Lumen Gentium) التي تقول «إن الخلاص يشمل أيضاً أولئك الذين يؤمنون بالله، وفي مقدمة هؤلاء المسلمين، الذين يؤمنون بالعقيدة الإبراهيمية ويعبدون معنا الله الواحد الرحمٰن الذي سوف يحكم بين الناس يوم القيامة». وهو ما تردده أيضاً الفقرة الثالثة من وثيقة (Nostra Aetate) التي تناولت بالتفصيل العلاقات الإسلامية ـ المسيحية.

وكما يقول الأب ميشال لولونغ (Père Michel Lelong)، في كتابه «الكنيسة الكاثوليكية والإسلام»، فإنه «بعد مرحلة من الجهل وسوء التفاهم، ظهرت روح جديدة وبدأت تنتشر في نطاق العلاقات بين الكنيسة والإسلام، حتى أنه، قبل عشر سنوات من المجمع المسكوني الثاني، نشر البابا بيوس الثاني عشر رسالته الإنجيلية الرعوية التي يدعو فيها المبشرين الكاثوليك لاكتشاف واحترام القيم الروحية للأديان غير المسيحية، هذا بالاضافة إلى أن بعض علماء الدين كالأب شونو (Chenu) والاب دانيلو (Danielo) كتبا الكثير

من المقالات، ونشرا بعض الكتب المستوحاة من هذه الأفكار المتحررة، كما أن بعض الجمعيات، كجمعية أدلوكوم (Adlucum) ونادي القديس يوحنا المعمدان، ساهمت في تعريف وتشجيع هذا التقارب في الأوساط الكاثوليكية».

وفي الفاتيكان ذاته، أنشأ البابا بولس السادس الأمانة العامة من أجل العلاقات مع غير المسيحيين ـ والتي تحولت فيما بعد إلى المجلس البابوي للحوار بين الأديان، الذي يترأسه في الوقت الحاضر الكاردينال جان لوي توران ـ. وتولَّت هذه الأمانة العامة إصدار كتاب تضمَّن توجيهات عامة حول العلاقات الإسلامية ـ المسيحية، ولعلَّ من أكثرها إثارة للانتباه التوجيه الذي يقول: «إن المسلم يفهم الكنيسة تلقائياً، كمؤسسة دينية وسياسية في آن واحد، ولسوف يحترم التأكيدات والتمييزات التي يقدمها محاوره المسيحي، ولكنه يظل يعود في أعماقه إلى أحداث تاريخية تخطِّئ المسيحيين، خصوصاً إذا ما بدأ هذا التمييز يتناول المسيحية والعالم الغربي، ذلك أن المسلم يرى فيهما اسمين مترادفين، وهذا ما يؤدي إلى لوم المسيحيين لسلبيتهم وجمودهم، بل لتواطئهم ومشاركتهم في مظالم الاستعمار وجوره، كما يلومون الكنيسة بأنها أوفدت البعثات التي كانت تحميها اليد العلمانية الطولى.

وصدرت أحكام من هنا ومن هناك، ومن هذا وذاك، ضد الإسلام، ولكن الشعوب المسيحية بدأت تنسى في أيامنا هذه تلك الأحكام، إلا أن المسلمين لم ينسوها.

فالمسلم يحترم المسيحي كما هو، ولكن لديه كثير من اللوم والعتاب يوجههما للعالم المسيحي وللكنيسة التي تشكل جزءاً من كلٍّ، من هذا العالم، في نظره».

مع ذلك، لم يشكل فكُّ الارتباط المباشر بين الدين والسياسة حلاً سحرياً لجميع المشاكل التي تواجه العلاقات بين الإسلام والفاتيكان. فالإسلام كالمسيحية، يعتبر نفسه ديناً كاملاً، تبشيرياً وعالمياً، وذلك خلافاً للأديان والعقائد الأخرى (كاليهودية مثلاً)، لذلك كان من الطبيعي أن يتنافس الدينان في الدعوة والتبشير، ولكن بدلاً من أن يكون تنافسهما تنويرياً لإخراج غير المؤمنين من الضلالة إلى الهدى، ومن الشرك إلى الإيمان بالله الواحد، اتخذ التنافس طابعاً صدامياً بحيث عمد كل منهما إلى التشهير بالآخر والطعن في نواياه؛ أدى هذا الأمر إلى تغييب البُعد الروحي للدعوة والتبشير معاً. بعض المسلمين اتَّهم حركات التبشير المسيحية «باصطياد» مسلمين لتنصيرهم، مستثمرة فقرهم من جهة والقدرات المادية لهذه الحركات من جهة ثانية، وذلك من خلال تقديم المساعدات الغذائية والصحية والتشغيلية والتعليمية. وبعض المسيحيين اتَّهم حكومات ومنظمات إسلامية بعدم احترام حتى ما يقول به الإسلام لجهة احترام حقِّ أهل الكتاب في ممارسة شعائرهم الدينية بحرية .. ناهيك عن انتهاك حرية الضمير وحرية الإيمان.

ومن هنا كانت الدعوات إلى الحوار الإسلامي ـ المسيحي التي أطلقها الفاتيكان أو شجَّع عليها، بهدف وضع صمّامات أمان للعلاقات الإسلامية ـ المسيحية، وخاصة في دول العالم الثالث حيث تنتشر المسيحية إلى جوار الإسلام، كما تنتشر في العالم الغربي، حيث تتوسع الهجرة الإسلامية وتتمازج في، ومع، المجتمعات المسيحية. فالمسيحيون الذين كانوا حتى القرن التاسع عشر يشكِّلون ٨٠ بالمائة من سكان أميركا وأوروبا، أصبحوا

يشكّلون اليوم في العالم الثالث وحده ثلثي المسيحيين في العالم، والمسلمون الذين يُقدَّر عددهم بحوالي مليار ونصف المليار إنسان، يعيش ثلثهم في دول ومجتمعات غير إسلامية.

كانت صفة «الأخوَّة» في أدبيات الكنيسة تعني حصراً المسيحيين، ولكن في عام ١٩٨١ خاطب البابا الراحل يوحنا بولس الثاني حشداً كبيراً من المسيحيين والمسلمين في مدينة مانيلا عاصمة الفلبين قائلاً: «إنني أتوجه اليكم كإخوة، وأنا أعني ما أقول، لأن ذلك هو ما نحن عليه. فنحن أبناء أسرة إنسانية واحدة، ولكننا إخوة في الله أيضاً الذي خلقنا، والذي نسعى للوصول إليه بوسائلنا الخاصة، عبر الإيمان والصلاة والعبادة، وعبر الالتزام بشرعته والاستسلام لمشيئته».

وفي شهر آب ـ أغسطس من عام ١٩٨٥، قام البابا بزيارة المغرب، وهناك ألقى خطاباً أمام الشباب المسلم في مدينة الدار البيضاء قال فيه: «إنني أؤمن بأن علينا نحن المسيحيين والمسلمين أن نعترف بفرح بقيمنا الدينية المشتركة، وأن نتوجه إلى الله بالشكر على هذه القيم».

وهكذا تغيَّرت الثقافة الدينية وتبدَّلت، من اعتبار الإسلام «عملاً شيطانياً»، إلى الإيمان بوحدة القيم الدينية.. ومن اعتبار المسلمين «مشوَّشي العقول، مآلهم جهنم وبئس المصير»، إلى اعتبارهم إخوة لا يستثنيهم الخلاص لإيمانهم بالله وبرسله وباليوم الآخر.

ومع هذا التغيير الجذري والعميق، تطوي العلاقات بين الإسلام والفاتيكان صفحات الماضي بكل مساوئه، وتفتح صفحة جديدة عنوانها الاحترام والتقدير والمحبة المتبادلة.

الفصل الأول

البابا والفاتيكان

البابا بنديكتوس السادس عشر هو البابا الثالث الذي يزور لبنان بعد بولس السادس الذي توقف في مطار بيروت، وهو في طريقه إلى الأردن والقدس، في عام (١٩٦٤م)، وجان بول الثاني الذي قام بزيارة رسمية، في عام (١٩٩٤م).

بدأت البابوية مع القديس بطرس (٤٢ ـ ٦٧ ميلادية)، وتعاقب عليها ٢٦٤ بابا حتى الآن، إضافة إلى ٣٧ بابا لم تعترف الكنيسة بهم، وأُطلق عليهم لقب «البابا الدجال»، كان أولهم هيبوليتوس (٢١٧ ـ ٢٣٥م)، وآخرهم فيليكس الخامس (١٤٤٠ ـ ١٤٤٩م).

ولد المؤسِّس، القديس بطرس، في إحدى قرى الجليل شمال فلسطين، ومات في (٢٩ حزيران/ يونيو من عام ٦٧ ميلادية).

ويقال: إنه، بعد أن أنكر المسيح، ظَلَّ يبكي حتى آخر يوم في حياته. حمل الدعوة المسيحية إلى روما ليجد فيها ٦٠ ألف يهودي وتسعة معابد يهودية ـ كنس ـ. وهناك وضع القاعدة الإيمانية التي لا يزال المسيحيون يرددونها في صلواتهم: «أبانا الذي في السماوات..». اعتقله الامبراطور الروماني نيرون وحكم عليه بالموت لأنه كان يدعو لدين يتناقض مع دين الدولة. طلب القديس بطرس أن ينفَّذ فيه حكم الموت صلباً ورأسه إلى الأسفل. وبعد تنفيذ الحكم به على هذا الشكل، دُفن في تلة خارج مدينة روما. وبعد عدة سنوات أقام الامبراطور قسطنطين، الذي اعتنق

المسيحية؛ كنيسة فوق قبره، وهي الكاتدرائية الكبيرة التي تعرف اليوم باسم كنيسة القديس بطرس حيث الفاتيكان. وقد عثر على القبر منذ قرابة العقدين من الزمن فقط وبالصدفة.

لم يكن القديس بطرس البابا الوحيد الذي مات شهيداً؛ فقد استشهد من بعده ٤٤ بابا ومات ٢٢٠ منهم بشكل طبيعي، كان آخرهم يوحنا بولس الثاني. بعضهم عاش حتى سن متأخرة، مثل البابا ليون الثامن الذي مات عن ٩٣ عاماً و١٤٠ يوماً، ومنهم من انتُخب في سن مبكرة جداً، مثل البابا بنوا الرابع الذي اعتلى السدة البابوية في عام (١٠٣٢م) عن ١٢ عاماً فقط. أما أطول فترة قضاها بابا على «عرش بطرس» فكان البابا بيوس التاسع (١٨٤٦ ـ ١٨٧٨م) إذ بلغت ٣١ عاماً وخمسة أشهر، وأما أقصر فترة فكانت من نصيب البابا إيتيان الثاني، في عام (٧٥٢م)، إذ لم تتجاوز أياماً أربعة فقط، حتى أنه توفي قبل تكريسه.

ومن أقصر الباباوات عمراً على السدة البابوية، البابا رومانوس، فقد مات مسموماً بعد ثلاثة أشهر فقط من انتخابه في عام (٨٩٧م من شهر آب/أغسطس حتى تشرين الثاني/نوفمبر). ومنهم أيضاً البابا ليو الخامس الذي قتل مسموماً أيضاً في (شهر سبتمبر/أيلول من عام ٩٠٣)؛ وكان قد انتُخب في شهر (تموز/يوليو) من العام ذاته، وقد أُجبر على الاستقالة لمصلحة الكاردينال كريستوفر الذي تعتبره الكنيسة (البابا الدجال).

وبعد أن أُحرقت جثته، أُلقي برماده في نهر التيبر الذي يخترق روما، أما ملابسه وأغراضه فإنها مدفونة داخل الفاتيكان. باعتباره البابا الشرعي. ويُعتبر البابا كليمنت الثاني (١٠٤٦ ـ ١٠٤٧هـ) أول بابا يلبس معطفاً مضاداً للسلاح، وكان ثاني البابوات الألمان، والوحيد الذي دفن في ألمانيا.

وقبل البابا يوحنا بولس الثاني، كان البابا أدريان السادس، الذي تبوأ السدة بين عامي (١٥٢٢ و١٥٢٣م)، البابا الوحيد غير الإيطالي. فأدريان كان هولندياً من مواليد أولتريتش، ويوحنا بولس الثاني كان بولونياً من مواليد كراكوف.

وقد تداول على السدة البابوية في الفترة الممتدة بينهما ٤٥ بابا جميعهم من إيطاليا.. مع ذلك، فبعد انتخاب البابا الحالي بنديكتوس السادس عشر، وهو ألماني، تساءل عدد من الكرادلة الإيطاليين: «متى يعود الكرسي البابوي إلى الإيطاليين؟».. وربما يلقي هذا التساؤل الضوء على خلفية الأحداث الداخلية التي وقعت في الفاتيكان في صيف هذا العام (٢٠١٢م) وكان بطلها الموظف المختص بتدبير الشؤون الشخصية للبابا.

وكان للفاتيكان جيش وحتى كانت له قوات بحرية. والبابا كاليستوس الثالث، وهو من أصل إسباني (١٤٥٥ ـ ١٤٥٨م)، هو الذي أنشأ الأسطول البحري وسلّحه من ماله الخاص ومن مساهمات الكرادلة، إلا أن هذا الأسطول، الذي عمل في البحر المتوسط واشتبك مع الأتراك عدة مرات، ألغي في شهر (أيلول/ سبتمبر من عام ١٨٧٠م)؛ أي: عندما قامت المملكة الإيطالية بعاصمتها روما. والبابا بنديكتوس الرابع عشر (١٧٤٠ ـ ١٧٥٨م) هو الذي ألغى تنظيم فرق الفرسان التي كانت مسؤولة عن حماية البابا والفاتيكان. أما الجيش الفاتيكاني فقد أسسه البابا غريغوري السادس (١٠٤٥ ـ ١٠٤٦م) لتحرير «أراضي الكنيسة من الغزاة المحتلين»، ورغم إنه كان يُعتبر من كبار الإصلاحيين إلا أنه أُجبر على الاستقالة..

ويعود إلى البابا كليمنت الخامس (وهو من أصل فرنسي، انتخب

في عام (١٣٠٥م)، بعد مرور أحد عشر شهراً من العمليات الانتخابية الفاشلة في بيروجيا في إيطاليا) الفضلُ في استحداث كرسي للدراسات السورية والعربية في جامعة بولونيا، كما يعود إليه الفضل في تأسيس جامعة أكسفورد وجامعة بيروجيا، وكان متعلقاً بفرنسيته إلى حد أنه جعل من مدينة أفينيون مقراً له، واستمر هذا التقليد من بعده لمدة سبعين سنة.

كانت هناك تقاليد تقضي لدى انتخاب بابا جديد، إقامة الحفلات والولائم للكرادلة والسفراء، وأن تُلقى الأموال في الشوارع ليلتقطها الناس احتفاء بالمناسبة، غير أن البابا غريغوري الثالث ألغى، لدى انتخابه في عام (١٥٧٢م)، هذه التقاليد، وبدلاً من ذلك أنفق الأموال على بناء مرصد كان الأول من نوعه في العالم، وفي عام (١٩٣٣م) نقل المرصد إلى قلعة غاندولفو (كاستيلو غاندولفو) في ضاحية روما، وهي المقر الصيفي للبابا.

والبابا ليو الثالث عشر هو الذي استحدث القبعة الصغيرة التي يعتمرها البابا وسائر الكهنة الآخرين، وحدَّد لكل فئة منهم لوناً خاصاً. فقبعة البابا، ويطلق عليها «زوشتو»، مصنوعة من المخمل ويكون لونها أبيض. أما قبعات الآخرين فمصنوعة من الحرير وهي باللون البنفسجي للأساقفة، وبالأحمر للكرادلة، وبالأسود لبقية الكهنة. ومن شروط استخدام هذه القبعة رفعها عن الرأس فقط عند الانحناء أمام مذبح الكنيسة.

والبابا بول الثاني الذي تولى السدة البابوية بين عامي (١٤٦٤ و١٤٧١م) هو الذي قرر أن يحتكر الكرادلة وحدهم اعتمار القبعة الحمراء.

أما البابا ألكسندر السابع (١٦٥٥ - ١٦٦٧م) فكان مهووساً

بالموت. كان يضع نعشه تحت سريره وكان لا يشرب الماء إلا من كوب خاص عليه رسم ملاك الموت!!.

وطوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فإن البابا الوحيد الذي تميَّز باللحية كان البابا إينوشنت السادس (١٣٥٣ ـ ١٣٦٢م)، وكان من أصل فرنسي. أما آخر بابا تميَّز باللحية فكان كليمنت الحادي عشر (١٧٠٠ ـ ١٧٢١)، وهو البابا الذي أسَّس الكنيسة في جزر الفلبين وأرسل البعثات التبشيرية إلى الصين والهند وإيران، وإليه يعود الفضل في المحافظة على ثروة الفاتيكان من التحف الفنية، إذ أنه أصدر حرماً بإخراج أي قطعة فنية منه.

ولعل من أكثر البابوات إثارة للجدل كان البابا بنديكتوس الرابع (١٠٣٢ ـ ١٠٤٤م)، فقد اعتلى السدة يافعاً عن عمر ١٢ أو ١٨ عاماً فقط، وأُطيح به أول مرة في عام (١٠٤٤م)، ثم أعيد انتخابه في (١٠ أيلول/سبتمبر عام ١٠٤٥م) ليتخلى عن منصبه في الأول من أيار ـ مايو من العام ذاته، مع ذلك عاد إلى السدة البابوية من جديد وأطيح به مرة أخرى بعد عشرين يوماً فقط، ولكن هذه المرة جرى التعويض عليه بمبلغ كبير من المال وانتُخب مكانه البابا غريغور السادس.

أما آخر البابوات غير الشرعيين (أو البابا الدجَّال) فكان فيليكس الخامس في عام (١٤٣١م)، وهو عام انتخاب البابا الشرعي أيضاً يوجين الخامس الذي استمر في منصبه حتى عام (١٤٤٧م).

ويُعتبر البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ ـ ١٤٥٥م) واحداً من أهم من تبوَّأ هذا المنصب الديني ـ السياسي الهام.

فعلى الصعيد السياسي، أعاد تنظيم العلاقات مع فرنسا

وإنكلترة، وساعد إسبانيا الكاثوليكية ضد المسلمين الأندلسيين حتى تمكنت من التخلص منهم.

وعلى الصعيد الديني، وقَّع في عام (١٤٥٣م) على معاهدة مع امبراطور النمسا فريدريك الثالث تضمنت حقوق الفاتيكان والكنيسة الكاثوليكية في كافة أرجاء الامبراطورية. وكان فريدريك آخر ملوك أوروبة الذي يُتَوَّج في الفاتيكان.

أما البابا إنوشنت الثامن، الذي تولى السدة بين عامي (١٤٨٤ و١٤٩٢م)، فامتاز بأنه ساعد كريستوفر كولومبس في مهمته لاكتشاف أميركا، وحارب الاستعباد الذي كان متفشياً في أوروبة، إلا أنه كان مريضاً، ويُعتقد أنه كان مصاباً بداء السرطان في المعدة، ولكن الأطباء في ذلك الوقت لم يكونوا في مستوى تشخيص المرض، ولذلك اعتقدوا أن حقنه بدم شباب أصحاء يمكن أن يضخ فيه القوة، ولكن الأطباء لم يكونوا قد عرفوا بعد بتعدد فصائل الدم، فمات البابا ضحية المعالجة الخاطئة عن حسن نية. ومما يزيد في الطابع المأساوي لقصته أنه مات قبل أن يعود كولومبس من رحلته الاستشكافية الناجحة!!.

وفي عهد البابا أوربان السادس (١٣٧٨ ـ ١٣٨٩م)، وهو آخر من اعتلى السدة البابوية من غير أن يكون كاردينالاً، وقع الانشقاق السياسي ـ الديني الكبير، فوقفت إنكلترة وألمانيا وهنغاريا وبولندة والدانمرك والسويد والنرويج، إضافة إلى وسط وشمال إيطاليا إلى جانب البابا أوربان السادس، فيما وقفت فرنسا وإسبانيا وإسكوتلندة ومملكة نابولي إلى جانب كليمنت السابع.

ووسط هذا الصراع السياسي، حدث الانقسام الديني الذي مهَّد الأرضية لانبثاق الحركة اللوثرية فيما بعد.

ولا شك في أن من أهم الأحداث التي شهدها الفاتيكان كان ظهور هذه الحركة اللوثرية، التي عرفت فيما بعد بالبروتستنتية. فالبابا ليو العاشر الذي تربع على السدة البابوية بين عامي (١٥١٣ و١٥٢١م) حرم مارتن لوثر، مؤسِّس الحركة وفيلسوفها، بعد زواج لوثر من راهبة سابقة تدعى كاترينا بووا. وأنشأ البابا مجلساً خاصاً لوضع لوائح بالكتب المحرَّمة كاثوليكياً والتي كانت تصدر عن الحركة اللوثرية.

وقد تبنى هذا الموقف من بعده البابا أدريان السادس (الذي تربع على السدة البابوية لمدة سنة وثمانية أشهر فقط)، وتوفي، كما كان يردِّد الرومانيون، من جراء إفراطه في تناول المشروبات الكحولية. وهو ما نفاه الفاتيكان.

كما تبناه وبشدة أيضاً البابا كليمنت السابع الذي عمَّر طويلاً على رأس الكنيسة (من عام ١٥٢٣ حتى عام ١٥٣٤م)، فقد أدان اللوثرية وحرم أركانها، إلا أن عدداً من القساوسة اعترضوا على الإدانة وأصبحوا منذ ذلك الوقت يُعرفون «بالمعترضين» أي: البروتستانت. وفشل البابا كذلك في استيعاب الملك تشارلز الخامس، وكان كاثوليكياً، بعد أن حرم الملك هنري الثامن بسبب قضية زواج! فقامت في أعقاب ذلك الكنيسة الإنكليكانية في بريطانيا والتي توسعت إلى الولايات المتحدة وكندا وإلى عدد من الدول الآسيوية والأفريقية وكذلك أستراليا.

لقد سجن نابليون بونابرت البابا بيوس السادس (١٧٧٥ ـ ١٧٩٩م) بعد أن غزا نابليون روما وسيطر عليها. أما خَلَفه البابا بيوس السابع (١٨٠٠ ـ ١٨٢٣م) فقد توجَّه إلى باريس لتتويج

نابليون، ولكنه سرعان ما اختلف معه حتى أصدر قراراً بحرمه وإخراجه من الملَّة.

أسس البابا بيوس التاسع، الذي شغل المنصب بين عام (١٨٤٦ و١٨٧٨م)، مبدأ «عصمة البابا» وذلك في كل شأن يتعلق بالقرارات أو المواقف الكنسية الرسمية التي يتخذها أو يعلنها، وقد ترافق ذلك مع إعلان روما في العشرين من (أيلول/ سبتمبر ١٨٧٠م)، عاصمة للمملكة الإيطالية، وقد ساعد اعتماد مبدأ عصمة البابا على اعتبار البابا أسمى وأعلى شأناً من ملك إيطاليا الذي ضم الفاتيكان إلى مملكته.

مع ذلك، فعندما كان الملك فكتور عمونيل على فراش الموت، لم ينسَ البابا المعصوم واجباته الرعوية، فتوجه إليه ومنحه بركاته. وبعد أن مات الملك، في (التاسع من يناير/ كانون الثاني ١٨٧٨م)، علَّق البابا متهكماً بقوله: «يا للمسكين.. لم يكتف بأن ينتزع مني ممتلكاتي هنا على الأرض، ولكنه يريد أن يأخذ مكاني هناك في السماء أيضاً».

ولكن لم تمضِ سوى أسابيع حتى توفي البابا في السابع من فبراير/ شباط من العام ذاته!!.

وكان البابا غريغوري السابع، الذي أعنلته الكنيسة قديساً، قد أصدر، بعد انتخابه في عام (١٠٧٣م)، الوثيقة البابوية التي تعتبر البابا وحده «عالمياً» وفوق الجميع، لا يخضع لحكم أحد، وأنه الوحيد الذي يحقُّ له أن يتحرَّر من القَسَم. وإليه توسَّل الملك هنري الرابع طالباً الغفران، ومشى إليه شبه عارٍ وحافي القدمين يدور حول مقره في «كانوسا»... وبعد ثلاثة أيام قال البابا: «حسناً.. غفرتُ لك».

ولعل أكثر الباباوات تواصلاً في حضوره حتى اليوم ولدى كل شعوب العالم هو البابا غريغوري الثالث عشر، الذي وضع التقويم السنوي المعتمد في العالم، وبموجب مبادرته تلك، أصبح يوم ١٤ تشرين أول/أكتوبر، هو ١٥ تشرين أول/أكتوبر. . وحُذفت بقية الأيام. . وبذلك انطلق التقويم الجديد.

وتميزت فترة البابا بيوس الثاني عشر، التي استمرت من عام (١٩٣٩م حتى عام ١٩٥٨م)، بحدثين دينيين بارزين يتعلقان بالكنيسة الكاثوليكية. الحدث الأول هو إقرار وإعلان عقيدة صعود مريم العذراء إلى السماء، ومنذ ذلك الوقت بدأت مراسم التبرُّك بتمثالها الواقع في ساحة إسبانيا في العاصمة الإيطالية روما في الثامن من ديسمبر/كانون الثاني من كل عام، وهو تاريخ إعلان هذه العقيدة.

أما الحدث الثاني فكان اكتشاف قبر القديس بطرس تحت مبنى الفاتيكان.

وكان هذا البابا بين قلَّة من البابوات الذين لم يغادروا روما على الإطلاق، وكان أبعد مكان قصده يقع على بعد ٢٧ كيلومتراً فقط من مقره، حيث دشَّن محطة إذاعية جديدة للفاتيكان.

أما فترة اعتلاء سلفه البابا بيوس الحادي عشر فتميَّزت بحدثين سياسيين بارزين: الحدث الأول هو التوقيع على اتفاق التسوية والمصالحة بين الفاتيكان، ممثلاً بالبابا، والدولة الإيطالية، ممثلة ببنيتو موسوليني، وذلك في (١١ شباط/فبراير ١٩٢٩م). وبعد هذا الإعلان أصبح البابا قادراً على أن يمنح بركاته للمؤمنين الكاثوليك من شرفة الفاتيكان وذلك للمرة الأولى منذ عام (١٨٧٠م)، وهو عام ضمِّ الفاتيكان إلى المملكة الإيطالية.

اما الحدث الثاني فهو نجاح البابا في تدشين أول أكبر محطة إذاعية في العالم تعمل على الموجة القصيرة.

لم يعرف الفاتيكان حتى اليوم أي بابا من خارج أوروبة؛ علماً بأن المسيحية تحركت جنوباً، وأن ثلثي المسيحيين اليوم هم في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، بعد أن كان ثمانون بالمائة منهم في أوروبة والأميركيتين، ولكن هناك أعداداً متزايدة من الكرادلة الأفارقة والآسيويين الذين يتطلعون إلى يوم ـ قد لا يكون بعيداً ـ يصل فيه أحدهم إلى السدة البابوية.

أما كلمة البابا فهي كلمة يونانية معناها الأب، وكانت تطلق على جميع القساوسة، ولكن منذ القرن التاسع أصبح اللقب وقفاً على «رئيس أساقفة روما»، وكان أول من حمله جون الثامن (٨٧٢ ـ ٨٨٢م).

يتولى مجلس الكرادلة انتخاب البابا، على أن لا يتجاوز عمر الكاردينال الثمانين عاماً حتى يحق له الاقتراع أو الترشح. وحتى القرن الحادي عشر كان ينتخب البابا جماعة المؤمنين، ثم تغير النظام الانتخابي، فأصبح ينتخبه أساقفة روما، ولا يزال البابا يحمل لقب رئيس أساقفة روما حتى اليوم.

تولى السدة البابوية حتى الآن ٢٠٨ بابوات إيطاليون كان منهم ١١٢ من روما ذاتها. كما تولى هذه السدة ٥٦ بابا من جنسيات مختلفة، بينهم ١٥ فرنسياً كان آخرهم البابا غريغوار الحادي عشر (١٣٧٠ ـ ١٣٧٨م). وجرى إعلان ٧٨ بابا قديسين وثمانية مكرَّمين مطوَّبين للقداسة، كان آخرهم البابا يوحنا بولس الثاني. ومن المتوقع إعلان البابا بيوس الحادي عشر الذي اعتلى السدة البابوية أثناء الحرب العالمية الثانية، قديساً أيضاً رغم معارضة إسرائيل والحركة الصهيونية العالمية بحجة انه لم يقم بما كان يقدر عليه

لحماية يهود إيطاليا من النازيين، أما آخر بابا جرى إعلانه قديساً، فكان بيوس العاشر (١٩٠٣ ـ ١٩١٤م).

ورغم أن البابا غير مضطر لتغيير اسمه، إلا أنه غالباً ما يختار اسماً جديداً لنفسه بمجرد انتخابه؛ وكان أول من فعل ذلك البابا جان الثاني عشر في عام (٩٥٥م). أما البابا يوحنا بولس الأول فقد سنَّ سابقة جديدة، إذ أنه الأول الذي اختار لنفسه، في عام (١٩٧٨م)، اسماً مزدوجاً؛ إلا أنه توفي بعد ٣٣ يوماً على اعتلائه السدة البابوية، فخلَفه الكاردينال كارول فوجتيلا ـ البولوني الأصل ـ متخذاً اسم يوحنا بولس الثاني تقديراً واستمراراً لخلَفه.

لم تعرف السدة البابوية سوى القليل جداً من البابوات الألمان، وآخرهم البابا الحالي بنديكتوس السادس عشر، وهو من أبرز وأهم علماء لاهوت الكاثوليكية، وكان رئيساً لمجلس العقيدة قبل انتخابه.

ولعل من أغرب القصص التي تتعلق بتاريخ البابوات في الفاتيكان، قصة البابا جون الثامن. وقبل سرد هذه القصة الغريبة بل والمستغربة حقاً، لا بد من الإشارة إلى أن المصادر الفاتيكانية الرسمية تؤكد أنها ليست صحيحة.

تقول القصة (أو الأسطورة) إنه كان لمبشر إنكليزي يعيش في ألمانيا ابنة تدعى جان، وكانت تعاني من خلل في توازنها الجنسي، وترتدي ملابس الصبيان منذ سن العاشرة من العمر.

وبصفتها شاباً، درس «الشاب» اللاهوت في أثينا باليونان والتحق بسلك الكهنوت، وتقدم في هذا السلك حتى تمكّن من إقامة علاقات وطيدة مع عدد من الكرادلة في الفاتيكان.

وتقول القصة ـ الأسطورة ـ أيضاً، إنه بعد وفاة البابا ليو الرابع في عام (٨٥٧م)، ترشح جان لخلافته وفاز بالفعل واعتلى السدة

البابوية لمدة عامين وخمسة أشهر إلى أن اكتُشف أمره صدفة.

ومما يؤكد على الطابع الغريب للقصة، كيفية اكتشاف أمره. فالقصة تقول: إن الرجل ـ المرأة ـ كانت حاملاً.. وكانت تخفي حملها بملابسها الفضفافة، إلا أنها، أثناء إحدى الاحتفالات العامة، تعثرت ووقعت على الأرض وأجهضت وسط الشارع حيث كان يجري الاحتفال، فذهل الناس جميعاً، بمن فيهم طبعاً الكرادلة والقساوسة، فانهالوا عليها ضرباً حتى ماتت هي وجنينها.

حدثت هذه القصة، أو اصطُنعت (؟) في عام (١٢٥٠م)، ثم نُفض عنها الغبار بعد مائة عام (١٣٥٠م)، واستمرت متداولة كحقيقة واقعية حتى عام (١٦٨٥م)، ومنذ ذلك الوقت انحبست الأضواء عنها تدريجياً إلى أن أصبحت ـ أو كادت ـ نسياً منسياً.

ويُعتبر الفاتيكان أصغر دولة مستقلة في العالم، إذ تبلغ مساحتها ٤٤ كيلومتراً مربعاً فقط. ويعود قيام هذه الدولة حديثاً إلى عام (١٩٢٩م) إثر اتفاق «ليتران» بين البابا بيوس الحادي عشر وموسوليني، غير أن عَلَم الفاتيكان سابق لهذا التاريخ، إذ يعود إلى عام (١٨٢٥م)، وأما النشيد الوطني فقد وُضع في عام (١٨٦٩م).

ويتولى حراسة البابا والفاتيكان فرقة من الحرس السويسري تتألف من مائتي عنصر.

بدأت هذه الفرقة مهمتها في عام (١٥٢٧م)، وهي غير مزوَّدة بأسلحة نارية باستثناء قادتها الذين يحملون مسدسات خاصة.

ويقتصر دور هذه الفرقة على المحافظة على الأمن داخل الحرم الفاتيكاني، وكذلك داخل المقر الصيفي للبابا، في قلعة غوندولفو، ولا يتعداه إلى الخارج؛ ولذلك فإن هذه الفرقة لا ترافق البابا في تنقلاته سواء داخل إيطاليا أو في العالم.

ويُشترط للانضمام إلى فرقة الحرس أن يكون المرشح سويسرياً عازباً، ومن المؤمنين والممارسين للشعائر الدينية الكاثوليكية، وأن لا يزيد عمره على ٢٥ عاماً، ولا يقل طوله عن متر و٧٥ سنتيمتراً، وتُعطى الأفضلية في اختيار المرشحين لأبناء وأحفاد رجال الحرس القدامى.

وقد صَمَّم الملابس الخاصة لأفراد الحرس الفنان الشهير مايكل أنجلو من ثلاثة ألوان هي الأصفر والأحمر والأزرق.

ويتولى قيادة فرقة الحرس ضابط سويسري يختاره البابا نفسه، نظراً لأهمية هذا المنصب أمنياً، وهو الوحيد الذي يُسمح له بالزواج أثناء الخدمة، ولكن بموافقة مُسبقة من أمين سر الدولة الفاتيكانية.

يُحاط الفاتيكان بجدار مرتفع يفصله عن مدينة روما، إلا أنه مفتوح من جهة رئيسة واحدة فقط هي مدخل كنيسة القديس بطرس الكبرى، وهناك عدة مداخل جانبية أخرى، غير أن ثمة جداراً أكثر ارتفاعاً هو السرية التي تحيط بالداخل الفاتيكاني. فما يحدث في الداخل لا يعرفه سوى أهل الداخل فقط، وهم قلة.

غير أنه جرى اختراق الجدارين معاً، فالشخص الأكثر قرباً من البابا بنديكتوس السادس عشر والأكثر معرفة بخصوصياته، والذي يتمتع بثقته الكاملة، سرَّب بعض أسراره الشخصية، وحتى أسرار بعض الأوضاع الداخلية إلى الإعلام، وهو أمر لم يحدث من قبل.

باولو غبريال، اسم يدخل التاريخ من بوابة كشف الأسرار؛ فهو الذي، منذ عام (٢٠٠٦م)، يوقظ البابا صباح كل يوم، ويقدم له القهوة، ثم فطور الصباح، وهو الذي يساعده على ارتداء ملابسه ويرافقه إلى القداس الصباحي.. ثم يلازمه كظله في تنقلاته

واستقبالاته العامة، ثم هو الذي يقدم له طعام الغداء.. ويؤمن له قيلولة بعد الظهر.. ويرافقه في نشاطاته المسائية حتى يقوده ليلاً إلى فراشه بعد تناول العشاء، ويطفىء أضواء جناحه الخاص.

ولأمر ما، لم تكشفه التحقيقات بعد، جمع باولو، بحكم موقعه المميز هذا، كمية كبيرة من الوثائق السرية التي تتعلق بالبابا وبأوضاع الفاتيكان الداخلية، وسرَّب بعضها إلى الإعلام. من هذه الوثائق إرسال «تبرعات مالية» لمسؤولين في الفاتيكان من أجل تأمين مقابلات خاصة مع البابا، ومنها عطاءات مالية سخية من شخصيات في حكومة برلسكوني السابقة، إلى مسؤولين في حكومة الفاتيكان من أجل الحصول على «توصيات بابوية»، ومنها هدايا من شركة سيارات «مرسيدس» من أجل اعتماد البابا السيارة التي تصنعها له الشركة.

جاء ذلك متزامناً مع طرد إيتوري غوتي تاديشي، رئيس بنك الفاتيكان المركزي، من منصبه على خلفية اتهامه بسوء الأمانة، وهو الذي لم يمضِ على تعيينه في هذا المنصب المهم سوى أقل من عامين، بعد فضيحة ارتبكها خَلَفه الذي اتهمته دوائر رسمية في الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي بتبييض الأموال!!.

ولا شك في أن الاتهامات التي وُجِّهت إلى عدد من مسؤولي الكنيسة الكاثوليكية، وخاصة في الولايات المتحدة وإيرلندة وهولندة بالاعتداء الجنسي على الأطفال، واعتراف عدد من هؤلاء المتهمين بما نسب إليهم، ثم استقالاتهم من مناصبهم واعتزالهم الحياة العامة، قد أثقل العبء على كاهل البابا الثمانيني، حتى إنه اتُّهم هو شخصياً بالسكوت على ارتكابات شقيق له في ألمانيا وقع في خطيئة الاعتداء الجنسي على الأطفال أيضاً، وذلك عندما كان البابا لا يزال رئيساً للأساقفة في بلاده.

ولقد جرت محاولات عديدة أخرى لتشويه صورته، حتى أنه اتُّهم بالانخراط في صفوف حركة «الشبيبة النازية». ورغم أن الانتساب إلى تلك الحركة كان إجبارياً على كل شاب وشابة، فإن «ريتسينغر» طلب إعفاءه استثنائياً حتى يلتحق بالمدرسة اللاهوتية، وكان له ذلك، إلا أنه لم يسلم حتى اليوم من الاتهام، وهو اتهام لم ينجُ منه البابا بيوس الثاني عشر الذي تولى السدة البابوية خلال الحرب العالمية الثانية واتهمته الحركة الصهيونية باللاسامية. لقد عرف الفاتيكان بابوات محبين لليهود وآخرين كارهين لهم.

فالبابا بونيفاس التاسع (١٣٨٩ ـ ١٤٠٤م) كان محباً لهم حتى أنه أحاط نفسه بمجموعة من الأطباء والجراحين اليهود، بعكس البابا بول الرابع (١٥٥٥ ـ ١٥٥٩م) الذي أجبر اليهود على العيش في «الغيتو»، وهو الذي أصدر قراراً هدد فيه بعقوبة الموت «كل من يعتمد اقتصادياً على امرأة، وعلى كل امرأة تقبل بمثل هذا الوضع».

أما البابا إنوشنت الحادي عشر (١٦٧٦ ـ ١٦٨٩م) فهو أول من فرض على المرأة أن تغطي رأسها عندما تدخل إلى الكنيسة وأن تلبس ملابس محتشمة.

وعُرف عن البابا غريغوري السادس عشر (١٨٣١ ـ ١٨٤٦م) مطالبته بتوسيع الغيتو اليهودي في روما وعدم التضييق على اليهود.

لقد زار عدد من البابوات إسرائيل، منهم البابا بولس السادس، ويوحنا بولس الثاني وبنديكتوس السادس عشر، ولكن العلاقات بين الفاتيكان وإسرائيل لم تكن يوماً على أحسن حال، وهناك مجلس فاتيكاني ـ يهودي يعمل باستمرار لمعالجة القضايا المشتركة ذات البعد الديني، وتصطدم هذه الجهود برغبة الفاتيكان في تطويب

البابا بيوس الثاني عشر ومعارضة إسرائيل والحركة الصهيونية العالمية لهذا التطويب لأنه يعني تقديس اللاسامية؟!.

يعرف البابا بنديكتوس جيداً أن الإيطاليين، كرادلة ورأياً عاماً، يتطلعون إلى أن يكون خليفته إيطالياً، وتفهماً منه لهذه المشاعر الوطنية ـ الدينية، بادر إلى رفع عدد الكرادلة الإيطاليين بحيث أصبحوا يشكِّلون الثلث تقريباً، وقد لاقت هذه المبادرة استحساناً. ولكن يبدو أن هناك أساقفة ممن لم تشملهم المبادرة البابوية عملوا على تشجيع أو على تحريض باولو غبريال على تسريب الأسرار الداخلية ليشكل عمله علامة بارزة جديدة في تاريخ الفاتيكان والبابوات!!.



مع البابا بنديكتوس ١٦ والكاردينال توران رئيس مجلس الحوار بين الأديان



الفَصْلُ الثّاني

دور الفاتيكان في العلاقات الإسلامية ـ المسيحية

تشكل زيارة البابا بنديكتوس السادس عشر إلى لبنان لإعلان وثيقة بابوية جديدة تتعلق بمسيحيي الشرق الأوسط، مؤشراً جديداً إلى مدى اهتمام الفاتيكان بالعلاقات المسيحية الإسلامية. وكان البابا قد ترأس مؤتمراً ـ سينودس ـ عُقد في الفاتيكان برئاسته لبحث مستقبل المسيحيين في ضوء المتغيرات التي عصفت ولا تزال تعصف بدول المنطقة، وتُعرف الوثيقة بـ «الإرشاد الرسولي»، وهي تتضمن توصيات مستمدة من الأبحاث ومن المناقشات التي جرت خلال السينودس.
فما هو واقع العلاقات الإسلامية مع الفاتيكان؟ وكيف تتغير؟ وفي أي اتجاه؟ وما هي العوامل المؤثرة في حركة التغيير التي تواجهها؟.

مرَّت علاقات الفاتيكان مع العالم الإسلامي بمراحل سيئة وأخرى بالغة السوء.

ففي القرن العاشر، عندما كان المسلمون لا يزالون في الأندلس، تمكَّنت فرقٌ منهم من السيطرة على الممرات الثلاثة الأساسية في جبال الألب التي تربط بين فرنسا وإيطاليا وهي سان برنار (St. Bernard)، وجبل سانيس (Mt. Cenis)، وجبل جنيف (Mt. Geneve)، وبذلك أصبحوا قادرين على السيطرة على طرق التجارة الأوروبية، وعلى التحكم بحركة الحجاج المسيحيين من المناطق الشمالية والغربية والذين يستخدمون هذه الممرات في طريقهم إلى الفاتيكان في روما.

وفي عام (٩٧٢م) كان القديس مايولوس عائداً إلى الدير بعد رحلة حج إلى روما، فاستخدم طريق سان برنارد (St. Bernard) لاجتياز الألب. وبعد أن نزل من الجهة الشمالية إلى مدن الوادي الواقعة على الطريق الصعودي، اختطف مسلحون مجموعته. وطالب الخاطفون، وكانوا من المسلمين، فدية مالية مقابل إطلاق سراحهم. دفع الدير الفدية وقدرها ألف جنيه من الفضة (بعد أن اضطر إلى بيع معظم موجوداته)، وقد حُدِّدت قيمة الفدية بحيث توفر لكل عنصر من الخاطفين مبلغ جنيه فضي واحد.

كانت تلك مرحلة سيئة. أما المرحلة الأسوأ فقد انطلقت من دير كليمنت في جنوبي فرنسا، عندما أعلن البابا أوبانوس، من دير كليرمونت في عام (١٠٩٥م)، «الحرب على الإسلام» بالدعوة إلى ما بات يعرف باسم «الحروب الصليبية» (حروب الفرنجة كما سماها العرب المسلمون)، وقد استمرت تلك الحروب حتى عام (١٢٩١م)، ذهب ضحيتها مئات الآلاف من الضحايا، ليس من المسلمين فقط، إنما من مسيحيي ويهود الشرق أيضاً.

فقد أشعل البابا شرارة تلك الحروب على قاعدة قوله: «أي خزي سيلحق بنا لو تمكَّن هذا الشعب الكافر الذي لا يستحق سوى الاحتقار والتجرد من أي صفة إنسانية والذي يعبد الشيطان، لو تمكن من التغلُّب علينا نحن الشعب الذي اختاره الله».

لم يتوقف تحريض الفاتيكان في ذلك الوقت على مواصلة حملات الفرنجة وضخها بمشاعر العداء للمسلمين، حتى بعد تحرير القدس على يد صلاح الدين الأيوبي في عام (١١٨٧م).

ففي عام (١٤٤٢م) دعا البابا أوجين الرابع (Eugene IV) ملوك وأمراء أوروبة لإعداد حملات صليبية جديدة، ولكن لم تكن

الاستجابة كافية لتنظيم أي حملة، فاضطر إلى صرف النظر عنها بألم ومرارة. وبعد سقوط القسطنطينية، على يد الأتراك (محمد الفاتح) في عام (١٤٥٣م)، حاول البابا نيقولا الخامس (Nicolas V)، ومن بعده البابا بيوس الثاني (Pei II) إعداد حملة صليبية إيطالية، ولكن لم تلقَ دعوة أي منهما تجاوباً يُذكر، الأمر الذي حملهما على الانكفاء وصرف النظر عنها بحسرة واستياء. فالدعوة التي وجهها بيوس الثاني إلى الملوك والأمراء الأوروبيين لعقد مؤتمر في مدينة مانتوفا في إيطاليا في عام (١٤٥٩م) (أي: بعد ست سنوات على سقوط القسطنطينية) لم تلقَ أي ردٍّ منهم، مما حمله على توجيه النقد الجارح إليهم، حتى أنه «اتَّهم المسيحيين بأنهم يتقاتلون فيما بينهم لأتفه الأسباب، ولكنهم عندما يدعون لمواجهة المسلمين الكفار يتقاعسون ويتنصلون من مسؤولياتهم تجاه دينهم».

وقد دفعه شعوره بالمرارة إلى حدِّ دعوة السلطان العثماني محمد الفاتح إلى اعتناق المسيحية مقابل مساعدة الكنيسة له ـ كمسيحي ـ على احتلال الممالك الأوروبية!!، ولكن خيبة أمله من عدم رد السلطان محمد الفاتح على رسالته لم تكن أقل من خيبة أمله من عدم تلبية ملوك وأمراء أوروبة دعوته إلى استئناف الحملات على الشرق.. أو حتى إلى تلبية دعوته إلى لقاء برئاسته لبحث إمكانية استئناف الحملات.

غير أن البابا إينوثنتو الثالث، الذي شغل السدة البابوية بين عامي (١١٩٨ و١٢١٦م)، نجح حيث فشل البابا أوجين الرابع. ففي عام (١٢١٢م)، قام تحالف من عدة دول مسيحية بتوجيه من البابا لطرد المسلمين الأندلسيين من إسبانيا، ونجح هذا التحالف في معركة «لاس ناباس دي تولوزا»، كما يسميها المؤرخون الأسبان، وذلك

نسبة إلى بلدة إسبانية تقع بالقرب من ساحة المعركة، أو معركة «العُقاب»، كما يسميها المؤرخون المسلمون، نسبة إلى اسم قلعة كانت قائمة في الموقع.

وكانت هزيمة المسلمين بداية سلسلة هزائم طاردتهم حتى غرناطة التي صمدت بعد وصول الإمدادات إليها من المغرب.. ثم سقطت أخيراً في عام (١٤٩٢م) لينتهي بسقوطها الحكم الأندلسي.

لقد لعب البابا إينوثنتو دوراً أساسياً في تشكيل التحالف المسيحي الذي ضم ممالك البرتغال وتابارا وأراغون ومتطوعين من إيطاليا وفرنسا، بقيادة الملك ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وكان هذا التحالف بمثابة «حملة صليبية» لطرد المسلمين من إسبانيا وتالياً من غرب أوروبا، وقد تحقق له ذلك، وفي الوقت ذاته أعدَّ للحملة الصليبية الرابعة إلى المشرق.

لقد ساهم عدد من الباباوات، عسكرياً ومالياً، في الحروب ضد المسلمين؛ فساعدوا المجر وبولندة ضد تركيا باعتبارها دولة إسلامية حتى ردوها عن ڤيينا، كما ساعدوا حتى مالطة ضد الأتراك المسلمين في البحر المتوسط، وساعدوا الأسبان ضد المسلمين في الأندلس حتى أخرجوهم منها، وأشعلوا نار حروب الفرنجة (الحروب الصليبية) وحرَّضوا عليها، ولكن التاريخ لم يقف هنا.

فقد مرَّت العلاقات الإسلامية مع الفاتيكان أيضاً بمراحل جيدة وبالغة الجودة:

بدأت المرحلة الجيدة في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين، الذي كان يلقب بالبابا الطيب، وهو الذي قاد الحركة الانفتاحية الحديثة في الفاتيكان. فقد دعا إلى مجلس للأساقفة حضره ٢٤٥٠ أسقفاً من مختلف أنحاء العالم تحت عنوان: «الحياة الكهنوتية

والعلاقات الاجتماعية: الكنيسة والعالم المعاصر». واستمر المجلس، الذي يُعتبر أحد أهم المجالس العشرين التي سبقته، من ١١ تشرين أول/أكتوبر ١٩٦٢م إلى ٨ ديسمبر/كانون الأول ١٩٦٥م؛ أي: إلى عهد خليفته البابا بولس السادس (١٩٦٣ ـ ١٩٧٨م)، وتعود أهميته إلى القرارات الدينية التي اتخذها، ومنها ما يتعلق بالإسلام والمسلمين. فقد أعلن المجلس لأول مرة احترامه للمسلمين لأنهم يقولون بإله واحد ويحترمون المسيح وأمه ويؤمنون به نبياً، كما يؤمنون بعذرية السيدة مريم وباليوم الآخر وبالحساب والعقاب. وأكد المجلس على احترامه للمسلمين لأنهم يقيمون الصلاة لله، ويؤتون الزكاة ويقومون بأعمال الخير للصالح العام. واعتبر المجلس في قراراته «أن الخلافات مع المسلمين تشكل خطيئة للإيمان بالله الواحد الذي خلق الناس جميعاً، ودعاهم إلى الخلاص والسعادة».

وقد عمل على تكريس هذه التعاليم الأسقفية الجديدة البابا بولس السادس، الذي خلف البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي كان توفي في (٣ حزيران/يونيو ١٩٦٣م)؛ أي: قبل انتهاء أعمال المجلس. فالبابا الأول يوحنا واجه موجة من معارضات المحافظين المتشددين بانفتاحه، حتى أنه ذهب إلى استقبال صهر الزعيم السوفياتي السابق خروتشوف مع أن الكنيسة حرَّمت الشيوعية. وحمل هذا المشعل من بعده البابا بولس السادس، أول بابا يسافر إلى خارج أوروبة ويسمح للكرادلة باستخدام الملابس المدنية، ويوافق على إجراء القداس باللغة الوطنية وليس باللغة اللاتينية حكماً.

وفي ضوء هذه التعاليم البناءة الجديدة التي أقرَّها المجمع الفاتيكاني وتبناها اثنان من البابوات المنفتحين، أعدَّ الأب جوزف

كوك والأستاذ لويس غارده وثيقة قدَّم لها الكاردينال ماريللا، المسؤول السابق عن أمانة شؤون غير المسيحيين في الفاتيكان، موجَّهة أساساً إلى المسيحيين، الذين، كما جاء في الوثيقة: «يلتقون المسلمين ويتمنون العيش في حوار دائم ومفتوح معهم». تقول هذه الوثيقة: «... يجب أن نعترف وبكل شجاعة وصدق، أن المسلمين لم يلاقوا من العالم المسيحي إلا القليل من التعاطف والودِّ... وقليلون هم الذين أوْلوهم العناية الكافية، على رغم أن الرهبان والراهبات أظهروا اهتماماً كبيراً في مجالات التعليم والمساعدة والرعاية، ولكن جهودهم بقيت جزئية أمام اتساع الاحتياجات. كما أن الغربيين المستشرقين منهم والعلماء والمتخصصين بالإسلاميات، أظهروا تعاطفاً وتفهماً لكل ما يتعلق بأهداف دراساتهم، ولكن تفهمهم للإنسان وتعاطفهم معه كان أقل... وهذا ما يأخذه المسلمون عليهم في أيامنا هذه، مع شيء من اللوم والعتاب.

وحتى اليوم، وفي أكثر الأحيان، عرف المسلمون العالم الغربي من خلال الأنظمة الاستعمارية. وباختصار، يجب أن نعي بكل موضوعية أن المسيحيين لم يحققوا بعد، كمجموعة، الشرط الأول والأهم الذي يؤهلهم لأن يكونوا موجودين وحاضرين في عالم المسلمين كما هو، وعلى حقيقته... وعلى هذا الأساس فإن الحوار لن يكون ممكناً طالما أن مثل هذا الجهد لم يُبذل بعد».

وجاء في الوثيقة أيضاً: «لقد ساد بين المسلمين والمسيحيين ماضٍ مؤلمٌ سيطر عليه الاقتتال والعداوة، في ما عدا بعض أجزاء العالم الإسلامي التي بقيت جغرافياً بعيدة عن الغرب المسيحي، لدرجة أن المجموعتين انطوتا على نفسيهما، وبقي كلٌّ منهما

محافظاً على موقفه، ومثل هذا الوضع لا يشجع على الحوار إطلاقاً، ويجب أن نعمل على تجاوزه، وعلينا نحن المسيحيين أن نبدأ الخطوة الأولى من دون أن نحاول معرفة ما إذا كان هذا منطقياً في نظر الحكمة الإنسانية. فلنتجه، إذاً، بزخم الفضائل الإلٰهية نحو الحياة والمستقبل، ونعطي هذا التوجُّه كل ما يتطلبه من وقت ومواظبة».

مع ذلك، فإن من الخطأ الإعتقاد بأن هذا الموقف الجديد للفاتيكان من الأديان الأخرى، ومن الإسلام تحديداً، مرَّ من دون معارضة. صحيح أن الأكثرية الساحقة من المجلس قد أقرَّته، ولكن كانت هناك معارضة قوية له، ولما اصطدمت هذه المعارضة بموافقة الأكثرية انشقت عن الكنيسة، وهو أمر نادر الحدوث، وتجسَّد هذا الانشقاق «جمعية القديس بيوس العاشر»؛ وذلك نسبة إلى البابا بيوس العاشر الذي توفي في عام (١٩١٤م)، والذي كرَّسه البابا بيوس الثاني عشر قديساً في عام (١٩٥٤م)، وذلك نظراً للإصلاحات الهامة التي حققها. ومن تلك الاصلاحات وضعُ القانون الكنسي وإنشاءُ المعهد الإنجيلي، ورفعُ الحرم الكنسي عن مشاركة الكاثوليك في الحياة العامة في الدولة الإيطالية؛ وبذلك أرادت الجمعية أن تقول، من خلال اختيارها اسم هذا البابا الإصلاحي، أنها ليست ضد الإصلاح من حيث المبدأ، ولكنها ضد ما تعتقد أنه تجاوز للإصلاح وانقلاب على التعاليم الثابتة للكنيسة.

وتبرر هذه الجمعية معارضتها لهذه التعاليم وانشقاقها عن الكنيسة، بأن مقررات المجمع الفاتيكاني كانت من الليبرالية بحيث أنها خرجت عن أساس العقيدة وثوابتها، ولا تزال هذه الجمعية قائمة حتى اليوم. وقد حاول البابا بنديكتوس السادس عشر

استعادتها إلى حضن الكنيسة الأم؛ فعرض في شهر (مايو/أيار ٢٠١٢م) على قادتها مواقع استرضائية في مؤسسات دولة الفاتيكان، مقابل إعلان قبولهم بتعاليم المجمع الثاني، إلا أن هؤلاء تمسكوا بموقفهم المعارض والرافض لهذه التعاليم.

وفي كل مرة تطفو على سطح الأحداث مشكلة ما في العلاقات الكاثوليكية اليهودية، أو الكاثوليكية الإسلامية أو حتى الكاثوليكية البروتستانتية، يردِّد هؤلاء المعارضون بصوت مرتفع: أرأيتم كيف أننا على حق؟.

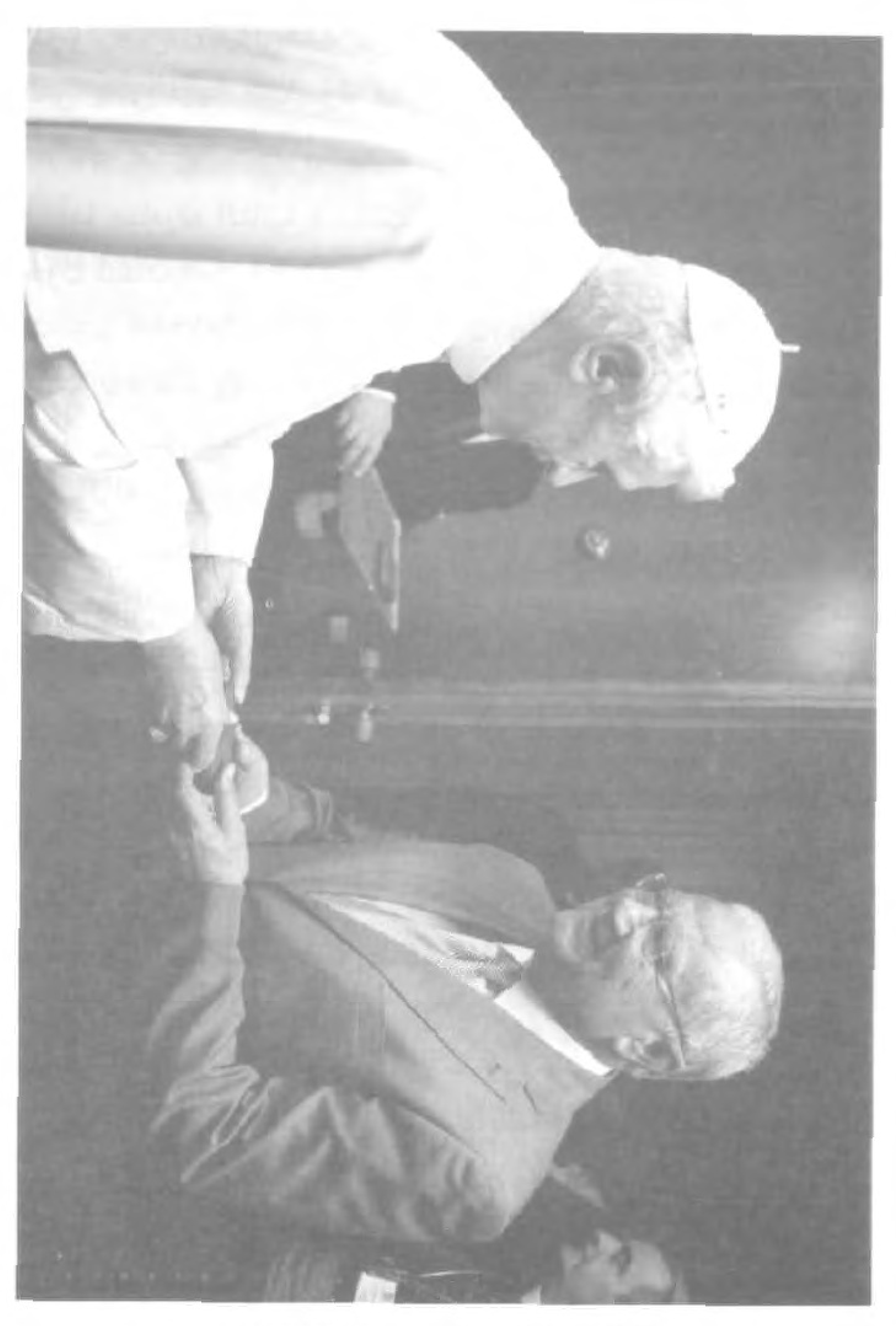
وقبل ذلك بعدة عقود، وتحديداً في عام (١٩٠٤م)، اتخذ البابا بيوس العاشر موقفاً مبدئياً من المطامع الصهيونية في فلسطين شكَّل رصيداً كبيراً للفاتيكان في العالم الإسلامي، ويتمثل هذا الموقف في الرسالة التي وجَّهها، في ٢٤ كانون الثاني - يناير من ذلك العام، إلى ثيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية رداً على رسالته التي طلب فيها من البابا دعم الفاتيكان لتهجير اليهود إلى فلسطين. وجاء في رسالة البابا الجوابية: «نحن لا نستطيع أبداً أن نتعاطف مع الحركة الصهيونية. إننا لا نقدر على منع اليهود من التوجه إلى القدس، ولكننا لا يمكن أبداً أن نقرَّه، وبصفتي قيِّماً على الكنيسة، لا أستطيع أن أجيبك بشكل آخر. لم يعترف اليهود بسيدنا (المسيح)، ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودي، وبالتالي، فإذا جئتم إلى فلسطين، وإذا أقمتم هناك، فإننا سنكون مستعدين، كنائس ورهباناً، أن نعمِّدكم (أي: نحولكم إلى المسيحية) جميعاً».

أما الأكثر جودة، فكانت في عهد البابا يوحنا بولس الثاني الذي اتخذ مبادرتين انفتاحيتين على الإسلام وعلى العالم الإسلامي. تمثلت المبادرة الأولى في دعوته في عام (١٩٨٦م)، إلى مؤتمر عام

للحوار بين الأديان عُقد في أسيزي بإيطاليا، وكانت المرة الأولى التي يلبي فيها مسلمون على مستوى عالٍ دعوة البابا إلى لقاء حواري موسع.

أما مبادرته الثانية فتمثَّلت في دعوته إلى عقد سينودس خاص حول لبنان (من ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر إلى ٤ كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٥م). ولأول مرة في تاريخ المجالس الأسقفية يُدعى مسلمون، سنة وشيعة ودروز (محمد السماك، سعود المولى وعباس الحلبي) ليس كمراقبين فقط، بل كمشاركين. ثم إن وثيقة «الإرشاد الرسولي» التي صدرت عن هذا السينودس، وأعلنها البابا نفسه من لبنان في العاشر من مايو ـ أيار ١٩٩٧، تضمَّنت فقراتٍ تؤكد على الحوار الإسلامي ـ المسيحي على قاعدة احترام الاختلافات العقدية، والتشديد على ما يجمع من قيم مشتركة بما يخدم العيش المشترك بين المسلمين والمسيحيين بمحبة وسلام.

لم تكن الإطلالة الأولى للبابا بنديكتوس السادس عشر على المسلمين إطلالة فوَّاحة؛ فقد جرى تفسير كلام له ورد في إطار محاضرة ألقاها في جامعة ريجنسبورك الألمانية على أنه يطعن بعقلانية الإسلام وبدعوته السلمية من خلال اقتباس رأي منسوب إلى الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني. ورغم أن البابا أوضح أن التفسير كان خاطئاً وأنه لا يتبنى ما ورد في الاقتباس، واصفاً رأي مانويل بأنه «موقف شخصي عبَّر عنه بفظاظة غير مقبولة»، ورغم أنه أكَّد أنه يكنُّ للإسلام كل احترام وتقدير، فإن علاقات الأزهر الشريف مع الفاتيكان، على خلفية هذا الأمر، لا تزال سلبية أو شديدة التحفظ حتى الآن، فالأزهر لم يعتبر التوضيح كافياً لأنه رآه دون مستوى الاعتذار.



البابا بنديكتوس يقدم ميدالية الفاتيكان

ولعل مما زاد الطين بلة، التصريحات التي أطلقها البابا بعد ذلك على خلفية الاعتداءات التي تعرض لها المسيحيون في العراق وكذلك في مصر، ودعا فيها إلى العمل على حمايتهم. وقد فُسِّرت دعوته هذه على أنها دعوة إلى التدخل الأجنبي، فيما أعرب هو نفسه عن أمله «في أن تستمر علاقات الثقة التي نمت بين المسيحيين والمسلمين منذ سنوات طويلة، بروح الحوار الصادق والاحترام المتبادل على أساس المعرفة المتبادلة والحقيقة التي تقرُّ بفرح بالقيم الدينية المشتركة بيننا، والتي تحترم بصدق الاختلافات». وكذلك أعرب الناطقون باسمه أن البابا كان ولا يزال يدعو إلى حماية وطنية تنبثق سن صميم المجتمع الذي يشكل المسيحيون المشرقيون جزءاً منه، وأنه لم يكن يعني دعوة لتدخل خارجي.

أكدت هذا المضمون الفاتيكان للدعوة إلى حماية المسيحيين، المبادرةُ التي اتخذها البابا نفسه بعقد سينودس خاص حول مسيحيي الشرق الأوسط بين (١٠ و٢٤ أكتوبر/تشرين أول ٢٠١٠م). وفي ضوء السابقة الانفتاحية التي سنَّها من قبله البابا يوحنا بولس الثاني، دعا البابا بنديكتوس السادس عشر شخصيتين إسلاميتين (سنية من لبنان محمد السماك، وشيعية من إيران محقق مصطفى داماد، إلى جانب شخصية يهودية من إسرائيل، دافيد روزن) للتحدث إلى السينودس عن شؤون وشجون أوضاع المسيحيين في المنطقة. وتتويجاً لهذه المبادرة فإن البابا سيعلن النتائج والتوصيات في وثيقة الإرشاد الرسولي؛ وهي وثيقة تجدِّد أسس العلاقات الإسلامية المسيحية في المنطقة في ضوء المتغيرات التي عصفت وتعصف بها. ولقد اختار لبنان تحديداً لإعلان الوثيقة لما تجسِّده صيغته الوطنية من تعايش بين المسلمين والمسيحيين، وتتكامل

عملية التجديد هذه مع ما قام به البابا الراحل يوحنا بولس الثاني ومع القاعدة التي أرساها مجلس الأساقفة في عام (١٩٦٥م)، في عهدي البابا يوحنا الثالث والعشرين وبولس السادس، وتنص هذه القاعدة على ما يلي:

«تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد، الحي القيوم، الرحمٰن القدير، الذي خلق السماء والأرض، وكلَّم الناس. إنهم يسعون بكل نفوسهم إلى التسليم بأحكام الله، وإن خفيت مقاصده، كما سلّم لله إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي بالانتساب إليه. وأنهم، على كونهم لا يعترفون بيسوع إلـٰهاً، إلا أنهم يكرِّمونه نبياً، ويكرِّمون أمه العذراء مريم، مبتهلين إليها أحياناً بإيمان. ثم أنهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس بعدما يبعثهم أحياء؛ من أجل هذا يقدرون الحياة الأبدية، ويعبدون الله بالصلاة والصدقة والصوم خصوصاً».

ثم إن هناك القاعدة التأسيسية الإسلامية السابقة لهذه الدعوة المسيحية والتي تصف النصارى (أي: المسيحيين) بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا، وتدعو إلى الحوار معهم بالتي هي أحسن، من أجل التوصل إلى كلمة سواء بأن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، وأن لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، وهي دعوة مارسها رسول الله محمد ﷺ مع نصارى نجران، وشقَّ بذلك، وهو الأسوة الحسنة، معالم الطريق أمام المسلمين للحوار الذي يحترم بين الناس بما فيها الاختلافات الدينية والعقيدية.

وانطلاقاً من هذه القاعدة، أطلق خادم الحرمين الشريفين، الملك عبد الله بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية، مبادرته للحوار بين الأديان والثقافات في (تموز/يوليو ٢٠٠٨م)،

وقد تعمَّد التمهيد لها بخطوتين متكاملتين. تمثلت الخطوة الأولى في الدعوة إلى مؤتمر لعلماء المسلمين من مختلف أنحاء العالم ومن كل المذاهب الإسلامية، عُقد في مكة المكرمة. وأسَّس المؤتمر لشرعية الحوار ولمنهجيته على قاعدة ما ذكره الملك نفسه في خطابه أمام المؤتمر من «إننا سننطلق في حوارنا مع الآخر بثقة نستمدها من إيماننا بالله ثم بعلم نأخذه من سماحة ديننا، وسنجادل بالتي هي أحسن، فما اتفقنا عليه أنزلناه مكانه الكريم في نفوسنا، وما اختلفنا حوله نحيله إلى قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون/٦].

وقد حدد المؤتمر، في نهاية أعماله، أهدافاً للحوار، منها:

• كشف دعاوى المروِّجين لصراع الحضارات ونهاية التاريخ، ورفض مزاعمهم بعداء الإسلام للحضارة المعاصرة؛ بهدف إثارة الخوف من الإسلام والمسلمين، وفرض السيطرة على شعوب العالم، وبسط ثقافة واحدة عليه (البند الخامس).

• التعرف على غير المسلمين وثقافاتهم، وإرساء المبادئ المشتركة معهم، مما يحقق التعايش السلمي والأمن الاجتماعي للمجتمع الإنساني، والتعاون في بثِّ القيم الأخلاقية الفاضلة، ومناصرة الحق والخير والسلام، ومكافحة الهيمنة، والاستغلال، والظلم، والفساد الخلقي، والتحلل الأسري، وغيرها من الشرور التي تهدد المجتمعات (البند السادس).

• حل الإشكالات والخصومات التي قد تقع بين المسلمين وغيرهم ممن يتشاركون معهم في الأوطان والمجتمعات بدرجتي الأكثرية أو الأقلية، وتوفير المناخ الصالح للتعايش الاجتماعي والوطني؛ بلا مجافاة أو خصومات أو تباعد (البند السابع).

• تحقيق التفاهم مع الحضارات والثقافات الإنسانية، وتأكيد انخراط المسلمين ضمن التعددية الحضارية لبني الإنسان، وتوظيف هذا التفاهم لتحقيق السلام العالمي وحمايته (البند الثامن).

وعلى قاعدة هذه المبادئ والأهداف، قام خادم الحرمين الشريفين بزيارة البابا بنديكتوس السادس عشر في مقره في الفاتيكان، وكانت تلك الزيارة الفاتيكانية الانطلاقة الأولى لمبادرته التي تحوَّلت الآن إلى مؤسسة عالمية مقرُّها ڤيينا ـ عاصمة النمسا. وتحمل المؤسسة الصفة العالمية لمشاركة ثلاث دول في تأسيسها رسمياً، وهي إلى جانب المملكة السعودية، النمسا وإسبانيا. أما الفاتيكان الذي شارك في مباحثات التأسيس فقد آثر أن تكون مشاركته بصفة مراقب، وهو متمثل في مجلس إدارة المؤسسة بشكل رسمي.

لقد تجاوز الملك عبد الله بن عبد العزيز بزيارته إلى الفاتيكان ولقائه مع البابا ـ وتبادل الهدايا الرمزية معه ـ مشاعر إسلامية سلبية كانت أطلقتها محاضرة ألقاها البابا نفسه في إحدى جامعات ألمانيا ونقل فيها، عن أحد ملوك بيزنطة، اتهام الإسلام باللاعقلانية وباللجوء إلى العنف، بل لعل العاهل السعودي، إدراكاً منه لأهمية موقع ودور الفاتيكان في أي حوار بين الأديان، اعتمد على التوضيحات التصحيحية التي صدرت عن الفاتكيان من أن النص موضوع الشكوى الإسلامية، لم يكن للبابا، وأن البابا لم يتبناه في الأساس، وإنما جاء النص في سياق محاضرة أكاديمية كان يلقيها في الجامعة.. ولم يكن موعظة يلقيها في الكنيسة.

أما الأزهر، الذي اعتبر التوضيح دون الاعتذار المطلوب، فقد تمسك بموقفه المستنكف عن الدخول في أي حوار مباشر مع الفاتيكان.

من هنا، فإن زيارة البابا بنديكتوس السادس عشر والذي يعني اسمه «المبارك»، وفي ضوء ما يتضمنه الإرشاد الرسولي من توجيهات ودعوات للحوار والعيش المشترك، تشكل مدخلاً لمرحلة جديدة نأمل أن تكون مرحلة مباركة من السماحة والاحترام المتبادل بين المسلمين والمسيحيين في المنطقة العربية وفي العالم كله.

الفَصْلُ الثَّالِث

الفاتيكان والقدس

سوف أحاول، من خلال هذا الموضوع، أن أروي بالوثائق وقائع مسيرة موقف الفاتيكان من القدس وصداماته الدينية والسياسية بإسرائيل من جهة، وانعكاسات التحولات في الصراع العربي - الإسرائيلي على هذا الموقف من جهة ثانية، وسوف تلاحظون أن سُلَّم المتغيرات في الموقف الفاتيكاني يتلازم سلباً وإيجاباً، استضعافاً واستقواءً، بسُلَّم المتغيرات في الموقف العربي، كما يتلازم وبالقدر نفسه، بسلم المتغيرات في مواقف الدول الكبرى من إسرائيل، وبصورة خاصة أوروبة والولايات المتحدة.

لهذه المسيرة محطات أربع هي:

١ - محطة ما بعد انطلاق الحركة الصهيونية - (١٨٩٧م).

٢ - محطة ما بعد إقامة إسرائيل والاعتراف بها في الأمم المتحدة - (١٩٤٨م).

٣ - محطة ما بعد احتلال إسرائيل للقدس - (١٩٦٧م).

٤ - محطة ما بعد اتفاقيات التسوية العربية مع إسرائيل

* مصر، كمب ديفيد (١٩٧٩م).
* السلطة الفلسطينية، أوسلو (١٩٩٣م).
* الأردن، وادي عربة (١٩٩٤م).

في **المحطة الأولى** تستوقفنا أربع إشارات أساسية:

أ - في (٢٤ كانون الثاني/يناير ١٩٠٤م)، وجَّه البابا بيوس

العاشر رسالة إلى تيودور هرتزل، مؤسس الحركة الصهيونية، رداً على رسالة كان هرتزل قد وجّهها إلى البابا طالباً فيها دعم الفاتيكان تهجير اليهود إلى فلسطين.

قال البابا في رسالته الجوابية:

«نحن لا نستطيع أبداً أن نتعاطف مع الحركة الصهيونية. إننا لا نقدر على منع اليهود من التوجه إلى القدس، ولكننا لا يمكن أبداً أن نقرَّه، وبصفتي قيِّماً على الكنيسة لا أستطيع أن أجيبك بشكل آخر. لم يعترف اليهود بسيدنا (المسيح)، ولذلك لا نستطيع أن نعترف بالشعب اليهودي، وبالتالي، فإذا جئتم إلى فلسطين، وإذا أقمتم هناك، فإننا سنكون مستعدين، كنائس ورهباناً، أن نعمِّدكم (أي: نحولكم إلى المسيحية) جميعاً».

ب ـ وجاء في وثيقة فاتيكانية صادرة في (الأول من أيار/مايو ١٨٩٧م)، ونشرتها (Civilta Cattolica) عشية المؤتمر الصهيوني الأول، الذي عُقد في بازل في سويسرا: «مرَّ (١٨٢٧م) سنة على تحقيق نبوءة المسيح بأن القدس سوف تُدَمَّر.. ولذلك فإن إعادة بناء القدس لتصبح مركزاً لدولة إسرائيل بعد تكوينها يتناقض كل التناقض مع نبوءات المسيح الذي أخبرنا مسبقاً بأن العامة (أي: غير اليهود) سوف تسيطر على القدس حتى نهاية زمن العامة (جنتيل)؛ أي: حتى نهاية الزمن».

جـ ـ لعل القديس بولس هو أول من أعلن المبدأ بأن استمرار اليهود لا يعود إلى قوة إيمانهم أو إلى ثقافتهم أو إلى وحدتهم العنصرية، ولكن استمرارهم يعكس إرادة إلـٰهية بأن يبقوا في حالة مزرية. كذلك فإن القديس أوغسطين يقدم اليهود كجماعة مُحْتَقَرَة ليكونوا أداة لتحقيق نبوءات دينية بمعاقبتهم لأنهم رفضوا المسيح

ولم يعترفوا به. (راجع: أوغسطين، مدينة الله - ترجمة ماركوس دودس - نيويورك - راندوم - (١٩٥٠م) ص.ص. ٦٥٦ - ٦٥٨).

د - في عام (١٩٤٤م) أصدرت إسبانيا قانون «الدم النقي» (Estatuto de Limpieza de sangre). وضِع هذا القانون لمنع اليهود حتى من اعتناق المسيحية، ومن ثم لتبَوُّء مناصب في الكنيسة، وربما كان هذا القانون أول قانون عنصري أوروبي. وقد تبنى مبدأ - الدم النقي - البابا ألكسندر السادس، وهو من أصل إسباني أيضاً وأعلن القانون البابوي (Limpieza) في عام (١٤٩٥م)، والذي عملت به كل الدول والمجتمعات المسيحية في ذلك الوقت.

أملى هذا الموقف المبدئي للفاتيكان ثوابت إيمانية، لعل من أبرزها:

١ - حكم الإدانة الذي أصدره البابا غريغوري الثالث عشر في عام (١٥٨١م) ضد اليهود.

٢ - الإيمان بعدم جعل القدس عاصمة لدولة يهودية حتى قيام الساعة، وفقاً لما ورد في إنجيل لوقا ٢١/ ٢٤.

٣ - عدم الاعتراف بالشعب اليهودي طالما أن هذا الشعب لا يعترف بالمسيح (رسالة البابا بيوس العاشر).

٤ - لا لسيادة اليهود على الأرض المقدسة في فلسطين (رسالة البابا بندكيت الخامس عشر إلى ناحوم سوكولوف مبعوث الحركة الصهيونية).

المحطة الثانية، هي محطة التنافس الأميركي - السوفياتي على إقامة إسرائيل، وعلى الاعتراف بها في عام (١٩٤٨م).

هنا نلاحظ أنه في الثاني والعشرين من شهر (حزيران/ يونيو ١٩٤٣م) وجّه وزير خارجية الفاتيكان الكاردينال لويجي ماغليون

تعليمات رسمية إلى السفير البابوي في واشنطن أمليتو سيكونياني طلب فيها إبلاغ الحكومة الأميركية بأن «تسليم فلسطين إلى اليهود أو وضعها تحت سيطرتهم لا بدّ أن يطعن جميع كاثوليك العالم في كبريائهم الديني».

وعندما زار رئيس الحكومة البريطانية في ذلك الوقت، ونستون تشرشل، الفاتيكان، ردّد أمامه وزير خارجية الفاتيكان هذا الموقف بشكل واضح ومباشر.

كان الفاتيكان ولم يزل حريصاً على مصالح الكاثوليك العرب، ولقد لعب هذا الحرص دوراً أساسياً في بلورة هذا الموقف؛ ذلك أن الكنائس الكاثوليكية في العالم العربي شأنها شأن العرب الآخرين كانت معادية للحركة الصهيونية ولمشروعها في إقامة دولة لليهود في فلسطين، وقد عكس تجاوب الفاتيكان مع هذا الموقف ليس فقط الحرص على الحضور الكاثوليكي في العالم العربي، إنما عكسه أيضاً، وبالقدر نفسه، الحرص على عدم السماح بوضع المقدسات الدينية المسيحية في القدس تحت سيطرة اليهود.

استمر الفاتيكان متمسكاً بهذا الموقف حتى (كانون الثاني/يناير ١٩٤٤م)، عندما أدرك أن ثمة التزاماً أميركياً - بريطانياً مع اليهود لإقامة دولة يهودية في فلسطين، فطرح الفاتيكان مشروعاً «التفافياً» يدعو إلى أحد أمرين: إما تمديد الانتداب البريطاني، أو تدويل فلسطين كلها. وفي حسابات الفاتيكان أن الانتداب أو التدويل يعني عملياً لا تهويد لفلسطين ولا تهويد للصروح الدينية المسيحية المقدسة، ويعني بالتالي الإبقاء على المرجعية المسيحية ممثلة في الانتداب أو في التدويل.

ولكن بريطانيا أعلنت في (نيسان/أبريل ١٩٤٧م) وخلافاً لما كان

يأمله الفاتيكان، قرارها بإنهاء انتدابها وبإحالة القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة، هنا وجد الفاتيكان نفسه، في ضوء هذا القرار، وجهاً لوجه أمام احتمالٍ من ثلاثة:

إما أن تتحول فلسطين إلى دولة يهودية.

وإما أن تقسَّم بين اليهود والعرب.

وإما أن تصبح دولة واحدة بأكثرية عربية.

الاحتمال الأول كان مرفوضاً فاتيكانياً من حيث الشكل والأساس، كما جاء في رسالة وزير خارجية الفاتيكان إلى الإدارة الأميركية، أما الاحتمال الثاني (أي: التقسيم) فقد رفضه الفاتيكان بشدة أيضاً على لسان رئيس الأساقفة في نيويورك سبلمان، وذلك على أساس «أن أرض فلسطين كلها هي أرض مقدسة بالنسبة إلى المسيحية». وأما الاحتمال الثالث؛ أي: عروبة فلسطين، فقد دافعت عنه بقوة وبحرارة في الفاتيكان الكنائسُ الكاثوليكية العربية، كما دافعت عنه البعثاتُ التبشيرية المسيحية العاملة في الشرق الأوسط. ونظراً لاهتمام الكرسي الرسولي بمستقبل المسيحية العربية، ولحرصه على حضورها وعلى مصالحها، فقد تجاوب مع هذا الموقف. كان الفاتيكان يدرك أن إعلان هذا الموقف رسمياً يضعه في حالة صدام مباشر مع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي اللذين كانا يتنافسان على العمل من أجل الاعتراف بإسرائيل، وكان الفاتيكان يدرك أيضاً أن منظمة الامم المتحدة لم تعد قادرة على إسقاط أو تفشيل التوافق الأميركي ـ السوفياتي على إقامة دولة يهودية في فلسطين.

من هنا تحوَّل الفاتيكان من القضية الفلسطينية إلى قضية القدس، وكان يأمل في أن يتمكَّن من تدويل القدس بعد أن تعذَّر عليه تدويل

فلسطين؛ ذلك أن مشروع التقسيم الذي وضعته اللجنة الخاصة (UNSCOP) في عام (١٩٤٧م)، أعطى الانطباع بأن تدويل المدينة المقدسة هو في متناول اليد.

كان هذا الاعتقاد وراء سحب معارضة الفاتيكان لمشروع تقسيم فلسطين، الأمر الذي شجع الدول الكاثوليكية، وخاصة دول أميركا اللاتينية والفلبين وإسبانيا وفرنسا وبلجيكا، على التصويت إلى جانب مشروع التقسيم.

وهكذا أقرَّت الجمعية العامة للأمم المتحدة، بالأكثرية، مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين: عربية ويهودية في (٢٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧م)، كما أقرَّت في الوقت نفسه وضع القدس تحت إشراف الأمم المتحدة، وذلك على أساس أنها تشكل «Corpus Separatum»؛ أي: جسماً منفصلاً. حالت الحرب العربية - اليهودية الأولى، التي وقعت في عام (١٩٤٨م)، دون تنفيذ قرار التقسيم. كما أدت سيطرة الأردن على القدس الشرقية وسيطرة اليهود على القدس الغربية إلى نسف مخطط تقسيم المدينة، كما ورد في قرار الأمم المتحدة الصادر في (٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧م). إزاء هذا الواقع الجديد أذاع البابا بيوس الثاني عشر في (٢٤ تشرين أول/أكتوبر ١٩٤٨م)، بيان «In Multiplicibus Curis»، الذي طالب فيه بتدويل القدس وجوارها من أجل ضمان سلامة الصروح المقدسة. كانت فرنسا مؤيدة لموقف الفاتيكان بامتياز، بل يمكن القول إنها كانت تحرِّض الفاتيكان وتشجعه على اتخاذ هذا الموقف؛ ذلك أن فرنسا أيضاً، وليس الفاتيكان وحده، كانت تعطي نفسها دور راعي المصالح الكاثوليكية في الشرق، والمؤتمن على حماية الكاثوليك العرب

(طبعاً من دون أن يطلب الكاثوليك العرب ذلك). يؤكد هذا الدور الفرنسي المميز رسالة وجهها وزير خارجيتها في ذلك الوقت روبرت شومان إلى السفير الفرنسي المعتمد لدى الفاتيكان قال فيها: «أريدكم أن تطلبوا من الحبر الأعظم أن يأخذ رسمياً موقفاً مؤيداً لتدويل القدس والمواقع المقدسة».

في عام (١٩٤٨م) أوفدت إسرائيل بعثتين إلى الفاتيكان لإقناع البابا بالعدول عن فكرة التدويل ولكن من دون نتيجة. وفي العام نفسه أوفد الفاتيكان إلى إسرائيل مبعوثاً خاصاً، هو المونسينيور توماس ماكماهون، مساعد رئيس أساقفة نيويورك سبلمان لشؤون القضية الفلسطينية، في محاولة لإقناع إسرائيل بقبول فكرة التدويل ولكن بدون نتيجة أيضاً.

إزاء ذلك، أصدر البابا بياناً جديداً «Redemptoris Nostri»، دعا فيه العالم الكاثوليكي للدفاع عن الصروح المقدسة وللعمل من أجل تدويل القدس.

حمل بيانَ البابا إلى الرئيس الأميركي روزفلت رئيسُ أساقفة نيويورك سبلمان، طالباً منه رسمياً وضع القدس ومحيطها خارج سيطرة أيٍّ من العرب أو اليهود، ولكن الرئيس الأميركي لم يبدِ أي تجاوب مع الطلب البابوي.

أمام هذا الأمر طُرحت، أمام الجمعية العامة، ثلاثة اقتراحات أساسية:

يدعو **الاقتراح الأول**، الذي وضعته لجنة التوثيق الفلسطينية التي كانت تضم ممثلين عن الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا، إلى أن يتولى كلٌّ من الأردن وإسرائيل إدارة قسم من مدينة القدس، وفقاً لخطوط وقف القتال الذي تمَّ في عام (١٩٤٨م)، كما يدعو

الاقتراح إلى أن يتولى مندوبٌ عن الأمم المتحدة مسؤولية الحفاظ على الأماكن المقدسة، ووضع مقترحات تفصيلية لإقامة نظام دولي دائم في منطقة القدس.

ويدعو **الاقتراح الثاني**، الذي قدمته هولندة والسويد معاً، إلى حصر مسؤوليات الأمم المتحدة في القدس بحماية الأماكن المقدسة فقط، وهو أمر يستجيب إلى مطالب إسرائيل التي كانت تطالب في ذلك الوقت بتدويل القدس الشرقية وحدها، والتي كانت بيد المملكة الأردنية.

أما **الاقتراح الثالث** فقد قدمته أستراليا، وهو يدعو إلى العودة إلى القرار رقم (١٨١) الصادر في (٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧م)، والذي ينصُّ على تدويل منطقة القدس بكاملها. ولقد لقي هذا الاقتراح الأسترالي معارضة شديدة من إسرائيل ومن الولايات المتحدة وبريطانيا، ولقي بالمقابل تأييداً عربياً وفاتيكانياً تمثَّلَ في مواقف الدول الكاثوليكية المتأثرة بالتوجيه الفاتيكاني.

استنفر الفاتيكان سفراءه المعتمدين في كافة الدول الأعضاء في الجمعية العامة للامم المتحدة، وقد قام هؤلاء السفراء بزيارات رسمية إلى رؤساء هذه الدول لحثِّهم على التصويت إلى جانب الاقتراح الأسترالي، وقد استجاب هؤلاء الرؤساء ووجَّهوا تعليماتهم إلى مبعوثيهم في المنظمة الدولية لتأييد الاقتراح. وهكذا استطاع مؤيدو الاقتراح الأسترالي جمع عددٍ كافٍ من الأصوات لإقراره بعد مناقشات ساخنة وشاقة وطويلة.

في (التاسع من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩م)، تمَّ التأكيد على إرادة الجمعية العامة للأمم المتحدة في تدويل منطقة القدس. وحده الأردن من بين الدول العربية عارض الاقتراح لأنه كان حريصاً على

عدم التخلي عن القدس الشرقية. كذلك صوَّتت إسرائيل ضد الاقتراح لأنها كانت ضد تدويل المنطقة التي تحتلها من القدس. كان التقسيم هو البديل الأردني، والبديل الإسرائيلي للتدويل، غير أن عمليات الأمم المتحدة تعثَّرت في تطبيق التدويل، فسرَّع كلٌّ من الأردن وإسرائيل عملية احتواء القسم الذي يسيطر عليه من القدس، فقد أعلنت إسرائيل القدس المحتلة عاصمة لها، ونقلت اليها المباني الحكومية الرئيسية بما فيها مقرّ الكنيست (البرلمان) ورئاسة الحكومة.

في عام (١٩٥٠م)، قدَّمت لجنة التوثيق الدولية مشروعاً، عُرف باسم رئيسها «غاررو»، يدعو إلى تدويل جزء من القدس (وليس كل القدس) بما في ذلك المواقع المسيحية، ولكن هذا المشروع واجه المصير ذاته الذي واجهه مشروع سويدي ـ بلجيكي عجز عن تأمين عددٍ كافٍ من الأصوات لإقراره. وهكذا أنهت الجمعية العامة دورتها في (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٠م) من غير أن تتبنى أي مشروع حول القدس.

وفي عام (١٩٥٢م)، وبإيعاز من الفاتيكان، طلبت الفلبين إعادة فتح ملف التدويل ولكن بدون طائل. فقد واصلت إسرائيل نقل دوائرها الرسمية، وخاصة وزارة الخارجية، إلى القدس، ولم يغير من هذا التوجه حتى زيارة البابا بولس السادس إلى المدينة المقدسة في عام (١٩٦٤م)، واستمر الوضع على هذا النحو حتى نشوب حرب حزيران/ يونيو (١٩٦٧م).

في **المحطة الثالثة**، محطة ما بعد الاحتلال الإسرائيلي للقدس الشرقية في عام (١٩٦٧م)، نتوقف أمام مساعي الفاتيكان لتدويل المدينة المقدسة.

ففيما كانت القوات الإسرائيلية تحتلُّ المدينة المقدسة، أعلن المونسينيور فالينك، الناطق الرسمي باسم الفاتيكان، في التاسع من (حزيران/ يونيو ١٩٦٧م)، أن مقررات الأمم المتحدة الصادرة في (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧م) كانت ولم تزل متوافقة مع رغبات الكرسي الرسولي، وفي الوقت نفسه وزّع ممثل الفاتيكان لدى الأمم المتحدة على الأعضاء وثيقة رسمية أكد فيها الفاتيكان قناعته «بأن الحل الوحيد الذي يوفّر الضمانات الكافية لحماية القدس والمواقع المقدسة فيها هو الحل الذي يقضي بوضع القدس وجوارها تحت نظام دولي». وأوضحت الوثيقة أيضاً أن مفهوم الفاتيكان لمعنى التدويل، هو أن تكون المنطقة المدوَّلة منطقة منفصلة «Corpus separatum» وخاضعة لنظام دولي.

انطلاقاً من هذا الموقف، اقترحت مجموعة من دول أميركا اللاتينية (الكاثوليكية) مشروعاً، في الثلاثين من حزيران/يونيو، يدعو إلى تدويل القدس، ولكن الاقتراح سقط أمام الجمعية العامة. هنا شعر الفاتيكان أنه أمام حائط مسدود، فالعالم العربي كان يعاني من هزيمة الحرب، وكان مبعثر الصفوف، فيما تتصرَّف إسرائيل بغطرسة المنتصر، الأمر الذي يعرِّض المقدسات في القدس إلى الخطر. قاد هذا الشعور الفاتيكاني إلى الاتصال المباشر بإسرائيل التي أصبحت الآن تسيطر على المدينة المقدسة وجوارها بالكامل.

بدأت الاتصالات في روما بين السفير الإسرائيلي لدى إيطاليا، يهود أفريل، وعدد من مسؤولي الفاتيكان، بمن فيهم البابا بولس السادس نفسه، وقد مهّدت هذه الاتصالات لإرسال وفد إسرائيلي رسمي إلى الفاتيكان حمل رسالة رسمية من رئيس الحكومة ليفي أشكول إلى البابا بولس السادس، وأدت من ثم إلى إرسال وفد

فاتيكاني إلى إسرائيل للاطّلاع على الأوضاع في القدس من المرجعيات الدينية المحلية المعتمدة فيها. نتيجة لهذه الاتصالات نُشر بيانٌ مشترك في (١١ حزيران/ يونيو ١٩٦٧م) لعله الأول بين الفاتيكان وإسرائيل؛ وقعه، عن الجانب الفاتيكاني، المونسينيور أنجيلو فليشي، ووقعه، عن الجانب الإسرائيلي، يعقوب هرتزوغ. جاء في البيان إنه «جرى التداول في عدة معادلات يمكن اعتمادها لتحقيق تسوية مقبولة للقضايا العامة المتعلقة بالأماكن المقدسة». كذلك نصّ البيان على «أن الجانبين قررا مواصلة اتصالاتهما حول هذا الموضوع». أخذ هذا التطور بُعداً جديداً في (٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٧)، عندما ألقى البابا بولس السادس موعظة أكد فيها على أمرين أساسيين:

الأمر الأول، توفير ضمانات لممارسة حرية العبادة والاحترام وسلامة الوصول إلى الأماكن المقدسة بالنسبة للأديان التوحيدية الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام، وذلك من خلال ضمانات خاصة توفرها هيئة ذات صفة دولية، تأخذ بعين الاعتبار الشخصية التاريخية والدينية للمدينة.

أما الأمر الثاني، فيتعلق بحق الأشخاص والجماعات المتواجدة حالياً على أرض فلسطين في ممارسة حقوقها المدنية والدينية المشروعة.

أرست هذه الموعظة، من خلال هذه الأمرين، الأسس الجديدة للموقف الفاتيكان المتطوّرعن صيغة التدويل التي كان يُطالب بها، وهذه الأسس هي:

أ ـ المحافظة على الأماكن المقدسة، وعلى الطابع التاريخي والديني لمدينة القدس.

ب ـ التمسك بالطبيعة الدولية للنظام الذي يُفترض أن يطبَّق على مدينة القدس وعلى الأماكن المقدسة فيها.

جـ ـ الضمانات الواجب توفرها لحماية الحقوق المدنية والدينية للجماعات المتعددة في فلسطين.

لم يقبل البابا تطبيق وضعية الفاتيكان، بالنسبة لإيطاليا، على القدس، بالنسبة لإسرائيل، أي: وضعية ما يُعرف بما وراء الحدود «Extraterritorial»، وذلك حرصاً منه على عدم تعريض الأماكن المقدسة إلى أي تغيير نتيجة التخطيط المدني الذي قد تواجهه المدينة القديمة، وقد لقي هذا الموقف صدى إيجابياً لدى منظمة الأونسكو التي أصدرت، في (تشرين أول/أكتوبر ١٩٦٨م)، القرار رقم (٣٤٣ ـ ٣)، الذي شدَّدت فيه على احترام ما تمثِّله المدينة القديمة والأماكن المقدسة فيها من إرث ثقافي هو ملك الإنسانية كلها. لم يغيِّر الفاتيكان من ثوابت موقفه الذي تمسك به منذ عام (١٩٤٨م)، باعتبار القدس وضواحيها جسماً منفصلاً «Corpus separatum»، إلا أنه، وحرصاً منه على الحضور الكاثوليكي في فلسطين وفي الشرق الأوسط، وحرصاً منه كذلك على سلامة الأماكن المسيحية المقدسة، أبدى استعداداً لاعتماد وسائل أخرى تترجم هذا الحرص بشقيه إلى واقع من دون أن يتخلى عن مبدأ الجسم المنفصل للمدينة المقدسة. حاولت إسرائيل استغلال هذا التطور الشكلي في الموقف الفاتيكاني لتجرَّ الفاتيكان إلى تغيير جوهري وذلك من خلال حصر موضوع التدويل بالأماكن المقدسة دون سواها. وقد ذكرت إسرائيل أن الاهتمام الدولي بالقدس يعود في أساسه إلى وجود هذه الأماكن، وبالتالي فإن إعطاء هذه الأماكن طابعاً دولياً كافٍ للاستجابة إلى الإرادة الدولية

عامة وإلى الإرادة الفاتيكانية خاصة، غير أن الفاتيكان رفض الاقتراح الإسرائيلي جملة وتفصيلاً. حاول أبا إيبان، خلال لقائه البابا بولس السادس في (أكتوبر/تشرين أول ١٩٦٩م)، تغيير الموقف الفاتيكاني ولكن من دون جدوى، مما أدى إلى انقطاع الاتصالات الإسرائيلية ـ الفاتيكانية.

وفي عام (١٩٧١م) وجه البابا رسالة حادة إلى الرئيس الإسرائيلي قال فيها: «إن الفاتيكان لا يستطيع أن يلتزم بأي اتفاق مع أي دولة لا يعترف بها، وأنه ـ أي: الفاتيكان ـ لا يمكن أن يعترف بإسرائيل طالما أنها في حالة حرب مع دول الشرق الأوسط». شكّلت هذه الرسالة عنواناً لمرحلة جديدة في العلاقات المضطربة بين الفاتيكان واسرائيل، وتمحور الاضطراب منذ ذلك الوقت حول:

أ ـ اعتبار القدس عاصمة لإسرائيل.

ب ـ اعتبار الاهتمام الدولي محصوراً بالأماكن المقدسة دون سواها.

جـ ـ مخطط الحكومة الإسرائيلية لتهويد القدس تحت مظلة التطوير والتحديث المدني.

د ـ مصادرة الأراضي العربية في المدينة وضواحيها.

هـ ـ إقامة حزام من المستعمرات اليهودية حول القدس بحجة إيواء المهاجرين اليهود.

وجد الفاتيكان في هذه المشاريع الإسرائيلية، مبرراً إضافياً للمطالبة بتدويل المدينة قبل أن يخنقها التهويد. ترددت أصداء هذا الموقف في العالم الكاثوليكي في أوروبة وأميركا اللاتينية، ولعبت الكنيسة الكاثوليكية العربية دوراً أساسياً في بلورة هذا الموقف

والتحريض عليه؛ ذلك أن هذه الكنيسة بدأت، منذ عام (١٩٧٠م)، تشعر بخطر التهويد على المدينة المقدسة وعلى الحضورالمسيحي فيها.

أبدى الفاتيكان قلقاً كبيراً من جراء هذا الخطر، وفي (كانون الأول/ديسمبر ١٩٧١م) شدَّد البابا بولس السادس «على الحاجة إلى ضمانات لنظام دولي خاص يحفظ للقدس تنوُّعها وطابعها الخاص كمدينة مقدسة، ويضمن في الوقت نفسه حقوق الجماعات المختلفة المقيمة فيها والتي تحافظ عليها كمركز روحي لها جميعاً». وتواصلت بعد ذلك بيانات ومواعظ وخطب البابا في مناسبات متعددة، التي عكست قلقه على مصير مسيحيي القدس وفلسطين «الذين يتهددهم التهجير».

في هذا الوقت بالذات، أقدمت أبرشية الآباء المخلِّصين في فرنسا على مبادرة أثارت نقمة المسيحيين العرب وغضب البابا. فقد باعت الأبرشية دير نوتردام دوفرانس في القدس إلى الجامعة العبرية؛ ويشرف هذا الدير الكبير، الذي يحتلُّ مساحة واسعة، على جدران القدس القديمة. اعترض الفاتيكان على الصفقة أمام المحاكم الإسرائيلية وذلك على أساس أن عملية البيع تمَّت من دون الحصول على إذن مسبق منه، كما ينصُّ على ذلك القانون الكنسي. وفيما كان القضاء ينظر في القضية تمَّ التوصُّل إلى تسوية تخلَّت الجامعة العبرية بموجبها عن الدير «وأعادت بيعه إلى الفاتيكان». وعندما قُضي الأمر على هذا النحو، قام مسؤول في وزارة خارجية الفاتيكان، المونسينيور جيوفاني بينللي، بزيارة لإسرائيل لإعادة استلام الدير، فوظفت إسرائيل الزيارة لفتح صفحة جديدة مع الكرسي الرسولي قام على إثرها موشي دايان بزيارة الفاتيكان، غير

أن هاتين الزيارتين، على تباعد المسافة الزمنية بينهما، لم تغيِّرا من طبيعة العلاقات المضطربة بين إسرائيل والفاتيكان.

وفي المحطة الأخيرة، محطة ما بعد اتفاقات التسوية العربية المصرية والفلسطينية والأردنية مع إسرائيل، نلاحظ أن العلاقات بين إسرائيل والفاتيكان ظلَّت متوترة وسلبية حتى بعد لقاء البابا بولس السادس برئيسة الحكومة الإسرائيلية غولدا مائير، في (كانون الثاني/ يناير ١٩٧٣م)، واستمرت على هذه الحال إلى أن قام الرئيس المصري أنور السادات، في (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٧م)، بزيارته الشهيرة للقدس. قلبت تلك الزيارة رأساً على عقب، طبيعة العلاقات بين إسرائيل ومعظم دول العالم وبصورة خاصة بين إسرائيل والفاتيكان، وفتحت إتفاقات كمب دافيد، ومن ثم معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية، الأبواب الدولية المغلقة في وجه إسرائيل على نحو لا سابق له. كان الفاتيكان قلقاً من استفراد إسرائيل بالقدس وتهويدها، أما الآن فإن قلقه أصبح يتمحور حول احتمال وجود اتفاق إسرائيلي ـ مصري يقرر مصير القدس من وراء ظهر البابا، ومن دون مراعاة مصالح المسيحيين في المدينة المقدسة!. سارع البابا، في عام (١٩٧٧م)، إلى توجيه رسالة إلى كلٍّ من الرئيس السادات ومناحيم بيغن، ولعل الرسالتين كانتا آخر مبادرة بشأن القدس قام بها البابا بولس السادس قبل وفاته.

في عام (١٩٧٨م) أصبح يوحنا بولس الثاني البابا الجديد، وكانت مبادرته الأولى التي قام بها، أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام (١٩٧٩م)، تؤكد التزامه بموقف البابا السابق وخاصة لجهة التمسك «بضرورة توفير ضمانات دولية لاحترام الطابع

الخاص للقدس». وبتوجيه من البابا الجديد، سلم السفيرُ البابوي لدى الأمم المتحدة الأمانةَ العامة مذكرة تفصيلية حول مفهوم الفاتيكان للضمانات الدولية، وبموجب هذه المذكرة طالب الفاتيكان بالاعتراف بالتعددية الدينية والتاريخية في المدينة المقدسة، وبحق كل جماعة دينية، من أتباع الأديان الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام، في أن تمارس حريتها الدينية على النحو الذي تؤمن به، من دون أن يكون لأي جماعة أي موقع متميزعلى الجماعات الاخرى. كذلك دعا الفاتيكان إلى إجراء حوار ديني وإنساني بنَّاء. ودعت المذكرة، في إطار تأكيدها على الحرِّيات الدينية والمدنية المتساوية للجميع، إلى تحديد الأراضي والمواقع الدينية وإلى تأمين الضمانات التي تمكِّن المجتمع الدولي من العمل بموجب نظام دولي يحفظ مصالح الأطراف المعنية.

في العام التالي (١٩٨٠م) تم في شهر شباط/فبراير، توزيع وثيقة أخرى في الأمم المتحدة لم تُنسب رسمياً إلى الفاتيكان هذه المرة. تضمنت الوثيقة اقتراحاً يقول: إن الضمانات اللازمة للوضع الخاص بالقدس يمكن أن يوفِّرها تآلف عدة دول غربية، لها اهتمام تقليدي في الأراضي المقدسة، مثل اليونان (عن الأرثوذكس) وإيطاليا وفرنسا (عن الكاثوليك) وبريطانيا (عن الأنكليكان) والولايات المتحدة (عن الإنجيليين)، وذلك كضامن جماعي للاتفاق الذي يتم التوصل إليه في المنطقة. كان البابا يوحنا بولس الثاني - وهو من أصل بولندي ومعادٍ قوي للشيوعية - قد تحالف مع الولايات المتحدة من أجل ضرب الشيوعية ليس في بولندة وحدها، إنما في العالم كله؛ ولذلك كان البابا حريصاً على قطع الطريق على الاتحاد السوفياتي وعلى كل دولة أخرى من دول الكتلة الشرقية

السابقة، لمنعها من الحصول على موطئ قدم في القدس من خلال التحالف الذي كان قائماً بين بعض الدول العربية والكرملين، وقد جاء الاقتراح الذي تضمَّنته المذكرة بتشكيل هيئة دولية، من دول غربية فقط، مقصوداً في حدِّ ذاته لمنع الشيوعيين السوفييت الذين كانوا يتمتعون بنفوذ سياسي في الشرق الأوسط ومع منظمة التحرير الفلسطينية بصورة خاصة، من أن يمدوا نفوذهم إلى القدس. وفيما كان البابا يوحنا بولس الثاني يبرمج خطوات الفاتيكان على حسابات هذا الموقف المبدئي، إذ بإسرائيل تعلن القدس كلها مدينة موحَّدة وعاصمة أبدية لها. كان طبيعياً أن يعتبر البابا الإعلان ضربة موجهة ليس فقط إلى أصحاب الحقوق العرب (مسلمين ومسيحيين) إنما إلى الفاتيكان نفسه، الذي لم يتخلَّ أبداً عن المطالبة بتدويل المدينة المقدسة وباحترام التعددية الدينية والتاريخية فيها، وبحق الجماعات الأهلية في ممارسة شعائرها الدينية وحقوقها الوطنية بحرِّية كاملة، وقد أكدت الصحيفة الناطقة بلسان الفاتيكان، بهذه المناسبة، الحاجة إلى نظام شرعي تضمنه سلطة دولية عليا في المدينة المقدسة.

وفي عام (١٩٨٤م)، حدد البابا يوحنا بولس الثاني ثلاث مهمات للنظام الدولي الذي يتصوره لإدارة شؤون المدينة المقدسة، وهذه المهمات هي:

أ ـ حماية الحقوق الدينية والمدنية الخاصة بكل جماعة من الجماعات في فلسطين حماية كاملة.

ب ـ المحافظة على الطابع المقدَّس للمدينة وحماية المواقع الدينية فيها.

جـ ـ تشجيع الحوار والتعاون بين المؤمنين من أتباع الديانات التوحيدية.

لم تبدِ إسرائيل أي تجاوب مع اقتراحات الكرسي الرسولي، فقد مضت قدماً في مخططها لتهويد المدينة المقدسة من خلال مصادرة أراضي العرب والتضييق عليهم، ومن خلال بناء المستوطنات اليهودية بكثافة، حتى أن عدد المسيحيين في القدس لم يعد يتجاوز ٢ بالمئة من عدد سكان المدينة المقدسة. مع ذلك استمرت الاتصالات الإسرائيلية ـ الفاتيكانية، والاتصالات اليهودية ـ الفاتيكانية تارة بخفر ومن وراء ستار، وتارة أخرى تحت أضواء الإعلام الرسمي، إلى أن عُقد مؤتمر مدريد، في (٣٠ تشرين أول/ أكتوبر ١٩٩١م)، بين إسرائيل والعرب بحثاً عن حلٍّ سياسي للصراع العربي ـ الإسرائيلي. أعطى المؤتمر انطباعاً بأن الأمور في الشرق الأوسط تسير نحو التسوية السياسية، الأمر الذي حمل الفاتيكان على التحرك بهدف المحافظة على دوره كراعٍ للمصالح الكاثوليكية في المنطقة عامة وفي القدس بصورة خاصة. ففي شهر (تشرين الثاني/نوفمبر من عام ١٩٩٢م)؛ أي: بعد مرور تسعة أشهر على مؤتمر مدريد، استقبل البابا يوحنا بولس الثاني في الفاتيكان وزير خارجية إسرائيل شمعون بيريز، ورحّب بدعوة رسمية تلقاها منه لزيارة إسرائيل. وفي (الثلاثين من كانون الأول/ديسمبر من العام التالي ١٩٩٣م)، اعترف الفاتيكان بإسرائيل وتبادل معها وثائق الاعتراف الرسمي. وفي عام (١٩٩٤م) أقام معها علاقات دبلوماسية، وشارك في شباط/فبراير ـ في أول مؤتمر مسيحي ـ يهودي عُقد في القدس بمبادرة فاتيكانية حضره ممثلون عن ٩٧ دولة. وفي عام (١٩٩٧م) عُقد اتفاق إسرائيلي ـ فاتيكاني «يُشرِّع للمرة الأولى، وضع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في الأراضي المقدسة». ويعتبر هذا الاتفاق في حدِّ ذاته عنواناً أساسياً من

عناوين التحول في موقف الكرسي الرسولي من القدس، وذلك استناداً إلى النقاط الثماني التالية التي نقلها إلى الفاتيكان الأمين العام للجامعة العربية عصمت عبد المجيد، ووزير خارجية مصر العربية عمرو موسى، أثناء لقائهما في القاهرة في (السابع عشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨م) بوزير خارجية الفاتيكان الكاردينال جان لوي توران، وهذه النقاط هي:

أولاً: إن الاتفاق يساعد حكومة إسرائيل، بزعامة بنيامين نتنياهو على استمرار تعنُّتها في عملية السلام وفي استباق نتائج المفاوضات حول الوضع النهائي في شأن القدس.

ثانياً: إن قرار تقسيم فلسطين، الرقم (١٨١) لسنة (١٩٤٧م)، (الصادرعن الجمعية العامة للأمم المتحدة) تحدَّث عن القدس مدينة ذات كيان مستقل منفصل تخضع لنظام دولي خاص، تتولى الأمم المتحدة إدارته تحت إشراف مجلس وصاية.

ثالثاً: إزاء احتلال إسرائيل، العام (١٩٤٩م)، القطاع الغربي من القدس وإعلانه عاصمة لها، عدَّل مجلس الوصاية هذه الوضعية وأعاد المدينة إلى الفلسطينيين.

رابعاً: أصدر مجلس الأمن قرارات عدة تتعلق بالوضع القانوني للقدس تؤكد على أنها أرض عربية فلسطينية، وترفض التدابير الإسرائيلية فيها، ومنها القرارات (٢٥٠ و٢٥٢)، وقرار الجمعية العامة رقم (٢٢٥٣).

خامساً: أصدر مجلس الأمن، في العام (١٩٩٣م)، القرار رقم (٧٩٩) (في شأن قضية المبعدين) أكد أن اتفاقية جنيف الرابعة تسري على جميع الأراضي التي احتلتها إسرائيل العام (١٩٦٧م)، بما في ذلك القدس الشرقية، ما مؤداه أن يكون هذا القرار الدولي

مفسِّراً للقرار الدولي (٢٤٢) في شأن ما اعتراه من غموض مُفتعل في قضية «أراضٍ» أم «الأراضي» التي احتلتها إسرائيل العام (١٩٦٧م).

سادساً: أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارات، خلال العامين الماضيين، تحت صيغة «الاتحاد من أجل السلام»، نبَّهت إلى تأكيد الوضع القانوني للقدس كمدينة فلسطينية محتلة.

سابعاً: الاتفاق مخالف للمادة (٢) من ميثاق الأمم المتحدة، التي شدَّدت على عدم المساهمة بأي صورة من الصور في «تكريس الاحتلال».

ثامناً: الجامعة العربية والدول الأعضاء تتطلع إلى توقيع اتفاق بين الفاتيكان والفلسطينيين أصحاب الحق في الأرض والسيادة على القدس، في شأن وضع الكنيسة، كما تتطلع إلى تعزيز التعاون والعلاقات مع الفاتيكان وسائر الكنائس المسيحية. ولقد أكد الفاتيكان، في إطار ردِّه على هذه النقاط، على أمرين أساسيين: **الأمر الأول**: هو أن الكرسي الرسولي لا يعترف بضمِّ إسرائيل للقدس الشرقية عام (١٩٦٧م). **الأمر الثاني**: هو أن الكرسي الرسولي يعتبر أن اتفاق (١٩٩٧م) لا يتعلق بمسألة القدس، بما في ذلك الوصاية على الأملاك الدينية التي يطالب الفاتيكان لها بضمان دولي.

وفي ندوة نظَّمتها في القدس البطريركية اللاتينية في (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨م)، قال وزير خارجية الفاتيكان الكاردينال جان لوي توران: «إن أي حلٍّ منفرد ومفروض بالقوة لا يمكن أن يكون حلاً»، مؤكداً «أن الفاتيكان يرى ضرورة أن تتمتع الأماكن المقدسة في القدس بالحماية بموجب وضع دولي خاص». وقال:

«معنى وقيمة القدس عظيمان للغاية وفريدان للغاية إلى حدٍّ يتجاوزان معه مصالح دولة واحدة أو الاتفاقات الثنائية بين دولة وأخرى».
وأكد توران: «أن القدس محتلة بشكل غير شرعي من قبل إسرائيل»، مع إشارته في الوقت نفسه، إلى أن «شيئاً لا يمنع القدس من تفرُّدها ووحدتها من أن تكون رمزاً وطنياً للشعبين الإسرائيلي والفلسطيني، اللذين يطالب كل منهما بها عاصمة له».
وبعد الاتفاق الذي تمَّ التوصل إليه بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية بمبادرة أميركية، في (تشرين الأول ١٩٩٨م)، (وهو الاتفاق الذي يحمل اسم واي ريفر، نسبة إلى مكان انعقاد المفاوضات التي أدّت إليه)، جدّد الفاتيكان تمسُّكه بموقفه المبدئي من القدس في بيان صدر عن بطريركية اللاتين الكاثوليكية في القدس، وتضمَّن ثماني نقاط أساسية هي:

١ ـ المطالبة بوضع خاص مضمون دولياً للأماكن المقدسة في القدس.

٢ ـ أن الفاتيكان لن يتدخل في الوضع السياسي للمدينة.

٣ ـ أن للفاتيكان دوراً في المفاوضات حول مستقبل المدينة المقدسة.

٤ ـ وجوب الاعتراف بحقوق سكانها جميعاً.

٥ ـ دعوة اليهود والمسيحيين والمسلمين إلى التعاون لكي تكون القدس مكاناً للقاء والمصالحة، مع اقتراب الألفية الثالثة لميلاد المسيح.

٦ ـ وجوب ان تبقى القدس رمزاً عالمياً للأخوة والسلام.

٧ ـ التأكيد على الطابع المقدس والتراث العالمي للقدس.

٨ ـ التوصُّل إلى سلام مستقرٍّ في القدس.

في الأساس كان الفاتيكان ضد إقامة دولة يهودية في فلسطين من حيث المبدأ، ولقد عارض إقامة هذه الدولة على مدى عقود طويلة، وكان الفاتيكان ضد تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية التزاماً منه بموقفه المبدئي، وحرصاً منه على مصالح الكاثوليك العرب، وكان الفاتيكان كذلك ضد تهويد مدينة القدس؛ لأن التهويد يتناقض مع المفاهيم الدينية لوجود المواقع المقدسة فيها، غير أن المتغيرات السياسية التي عصفت بالشرق الأوسط، منذ اعتراف الأمم المتحدة بإسرائيل في عام (١٩٤٨م)، ثم احتلال إسرائيل للقدس في عام (١٩٦٧م)، وبعد ذلك عقد معاهدة الصلح المصرية - الإسرائيلية في عام (١٩٧٩م)، ثم عقد مؤتمر مدريد في عام (١٩٩١م)، وإطلاق مسيرة التسوية السياسية التي تجاوزت محطة أوسلو الفلسطينية في عام (١٩٩٣م) (ثم محطة نهر واي قرب واشنطن في عام ١٩٩٨م)، ومحطة وادي عربة الأردنية في عام (١٩٩٤م)، هذه المتغيرات دفعت بالفاتيكان إلى التحرك للمحافظة على مصالحه كراعٍ للكاثوليك في المنطقة، وكقيِّم على المراكز الدينية المسيحية في القدس. هزَّت هذه المتغيرات الثوابت الفاتيكانية، إلا أنها لم ترسِ ثوابتَ من نوع معاكس أو حتى من نوع آخر؛ فالمجال لا يزال مفتوحاً أمام العالم العربي خاصة وأمام العالم الإسلامي عامة، للتحرك باتجاه الفاتيكان ولتلقف يد التفاهم والتعاون التي كان البابا الراحل يوحنا بولس الثاني أول من مدَّها، رغم خيبة الأمل العربية والإسلامية من العلاقات الجديدة التي أقامها مع إسرائيل ومع يهود العالم.

إن الرفض والتنديد والإدانة أمر سهل، وهو يفرِّج عن النفس، إلا أنه لا يصون حقاً ولا يردع ظلماً ولا يبني علاقة، والمطلوب

صون الحق العربي في فلسطين وفي القدس، دينياً (إسلامياً ومسيحياً) ووطنياً، والمطلوب ردع الظلم الإسرائيلي المتوحش في مصادرة الاراضي وبناء المستوطنات وتهويد المدينة المقدسة، والمطلوب بناء علاقة مع المرجعيات المعنية بهذا الامر دينياً وأخلاقياً وسياسياً وفي مقدمة هذه المرجعيات الفاتيكان.

الفصل الرابع

القدس في الإسلام

«القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبيِّنا، ومجتمع الملائكة، فلا يُتصوَّر أن ننزل عنه، ولا نقدر أن نتلفظ بذلك بين المسلمين. أما البلاد فهي لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً»[١]

صلاح الدين الأيوبي

لا يمكن فهم علاقة الإسلام بالقدس من دون فهم علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية؛ ذلك أن القدس هي المكان الروحي الوحيد الذي تتجسد فيه هذه العلاقة بين الرسالات السماوية الثلاث.

لقد جاء الإسلام بعد اليهودية والمسيحية، إلا أن الرسالة الإسلامية تقول:

أولاً: إن الإسلام لم يبدأ بالنبي محمد، بل إن النبي إبراهيم، الذي يصفه القرآن الكريم بأنه: «خليل الله»، هو أول من أطلق اسم الإسلام على المؤمنين الذين آمنوا بالله وسلموا أمرهم لله.

ثانياً: إن الإسلام لم يلغِ ما قبله ولم ينكره، ولم يتنكر له، بل جاء ـ حسب قول النبي محمد ـ متمماً لمكارم الأخلاق؛ أي: متمماً لما قبله.

---

(١) من رسالة جوابية وجَّهها صلاح الدين الأيوبي إلى الملك ريتشارد قلب الأسد، أثناء حروب الفرنجة.

ثالثاً: إن الإسلام يؤمن باليهودية رسالة من عند الله، كما يؤمن بجميع الأنبياء والرسل، فالقرآن يقول في الآية ٨٤ من سورة آل عمران: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

وفي الأساس أيضاً، تضع الآية ٤٦ من سورة العنكبوت الإطار العقيدي لهذه العلاقة بقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

ويؤمن الإسلام بالمسيحية، ويولي السيد المسيح وأمه العذراء مريم مكانة عالية في العقيدة الإسلامية.

رابعاً: إن المسلم لا يكتمل إيمانه، بل لا يكون مسلماً في الأساس إذا لم يكن يؤمن بالمسيحية وباليهودية، وإذا لم يكن يؤمن بالتوراة وبالإنجيل اللذين يقول عنهما القرآن فيهما ﴿هُدًى وَنُورٌ﴾.

إن هذا الإيمان، الذي يربط بين الإسلام واليهودية والمسيحية، هو الذي يشد رباط الإسلام بالقدس باعتبار أنها نقطة الالتقاء على الأرض بين الرسالات الثلاث، ورمز وحدة مصدر هذه الرسالات وهو الله، ورمز وحدة هدفها وهو الإنسان.

في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية، كان المسلمون يتوجهون في صلاتهم نحو مدينة القدس، ولم يتحولوا نحو الكعبة، في مدينة مكة المكرمة، إلا في المرحلة التالية من الدعوة عندما استتبَّ الأمر للنبي في المدينة المنورة.

وفي الروايات الروحية الإسلامية التي يذكرها القرآن أن الله أسرى بمحمد ﷺ من المسجد الحرام، في مكة، إلى المسجد

الأقصى ـ أي: المسجد البعيد ـ في القدس. ويقول القرآن عن هذا المسجد الأقصى: ﴿ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾؛ أي إن البركة الإلـٰهية في المفهوم الإسلامي ليست محصورة بالمسجد الأقصى وحده، ولكنها تشمل كذلك ما حوله، باعتبارها أرض وحي لكثير من الأنبياء. ورسول الله محمد ﷺ يقول: (**لا تُشَدَّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام** ـ في مكة ـ **ومسجدي هذا** ـ في المدينة ـ، **والمسجد الأقصى**).

وفي الرويات الروحية الإسلامية أيضاً، أن الله عرج بالنبي ﷺ من المسجد الأقصى في القدس إلى السماوات العلى، وأنه خلال ذلك، فرض الله على المسلمين الصلاة خمسين مرة في اليوم، إلا أن النبي موسى نصح النبي محمد ﷺ، خلال عملية العروج في السماء، بأن يطلب من الله أن يخفِّف عن المسلمين عدد الصلوات اليومية، وهو ما فعله النبي محمد بالفعل، فاستجاب الله لطلبه وخفض عدد الصلوات إلى خمس فقط، وهذا يؤكد مرة أخرى على العلاقة الروحية بين الأنبياء في العقيدة الإسلامية، وفي الثقافة الإسلامية على حد سواء.

من هنا، فإن المسلمين لا ينكرون حق اليهود في أن يقيموا معبداً لهم في القدس، ولكن المشكلة هي في اعتقاد اليهود بأن موقع المعبد، الذي يريدون إقامته، هو الموقع نفسه الذي يقوم عليه المسجد الأقصى، مما يعني تدمير هذا المسجد، بكل ما يرمز إليه من مقدسات إسلامية، لبناء الهيكل.

وليبرهن المسلمون على أنهم لم يقيموا المسجد فوق أنقاض معبد سليمان، الذي دمره الرومان ومن قبلهم البابليون، يؤكِّدون على الخلفية التاريخية لدخول الإسلام إلى القدس؛ فيروون كيف

أن الخليفة عمر بن الخطاب (الخليفة الثاني) امتنع عن الصلاة في حرم كنيسة القيامة حتى لا يحوِّل المسلمون ـ فيما بعد ـ ذلك الركن الذي يصلي فيه إلى مسجد، وبالفعل فقد صلى خارج الكنيسة وفي موقع يبعد عنها حيث يقام اليوم في ذلك الموقع مسجد يحمل اسمه، وهو مسجد عمر.

إن من أهم معجزات محمد ﷺ معجزة الإسراء والمعراج، وهي مرتبطة بالقدس، ولقد سُمِّيت قدساً لأن الله باركها وقدَّسها، وقد خصَّ الله ﷻ هذه المدينة على مدى التاريخ بفيض من نعمه وبركاته. ففي الأدبيات الدينية، هي أول مكان انحسرت عنه مياه الفيضان أيام نوح ﷺ. وكان المسجد الأقصى في بيت المقدس أول كعبة للإسلام وجَّه المسلمون وجوههم شطره، وفيها حدثت البشرى لمريم بابنها عيسى ﷺ، وفيها ـ كما تذكر روايات دينية ـ هزت مريم ـ بعد أن وضعت ابنها المسيح عيسى ﷺ ـ النخلة فتساقطت عليها رُطباً جنياً، ولأن للقدس هذه المكانة الرفيعة عند الله فقد تعمَّد الخليفة عمر بن الخطاب أن يسعى إليها فور تحريرها في عام (٦٣٨م) من البيزنطيين وليتسلَّم مفاتيحها بنفسه. وقام عمر بجمع الأوساخ والنفايات في ردائه من موقع الصخرة حيث عرج النبي إلى السماء، واقتدى به جنود الجيش الإسلامي فقاموا بتنظيف الموقع وتطهيره.

سار على نهج الخليفة عمر بن الخطاب من بعده عبد الملك بن مروان، الذي شيَّد القبة التي تظلِّل الصخرة، والتي تذكر روايات إسلامية أن النبي محمد ﷺ عرج منها إلى السماء، ثم ابنه الوليد شيَّد فيما بعد المسجد. ويذكر التاريخ أنه ما إن حرَّر المسلمون القدس من البيزنطيين، في عام (٦٣٦م/ ١٥هـ)، حتى سجلوا سابقة تؤكد سماحة الإسلام وتقديره لأهل الكتاب.

كانت المبادرة نحو المسيحيين الذين أعطاهم عمر بن الخطاب العهد الموثوق «باحترام كنائسهم وبيوتهم وسائر ممتلكاتهم»، وهو العهد المعروف باسم العهدة العمرية، والذي تضمن الموافقة على الطلب المسيحي منع دخول اليهود إلى القدس وسكنهم فيها.

وفي هذا الكيلومتر المربع الواحد في القدس القديمة يوجد الحرم الشريف وقبَّة الصخرة ومسجد عمر، وغيرها من المقدسات الإسلامية، وتوجد فيه كنيسة المهد والقبر المقدس ومقدسات مسيحية عديدة أخرى، وفيه حائط البراق (حائط المبكى) الذي يعتقد اليهود أنه الأثر الوحيد الباقي من هيكل سليمان. وفي تلة صهيون، المطلَّة على المدينة، يوجد قبر داود، وموقع العشاء السري الأخير. وفي تلة الزيتون توجد الجثمانية، وهو الموقع الذي بُعث فيه المسيح حياً وصعد إلى السماء، كما يوجد قبر مريم ويوسف والكنيسة التي تقوم عليهما، من أجل ذلك يتمتع هذا الكيلومتر المربع الواحد بحضور ديني كثيف تشمل قوتُه الروحية الرسالاتِ السماويةَ الثلاثَ مجتمعةً.

ومن خلال إيمان الإسلام باليهودية والمسيحية، فإن هذه المواقع الدينية تعنيه وتهمه بقدر ما تعني وتهم اليهود أو المسيحيين أيضاً. فالاهتمام الإسلامي بالقدس ليس اهتماماً بمواقع إسلامية مقدسة فقط، بل إنه اهتمام بوحدة الدين والرموز الروحية لهذه الوحدة، كما أنه اهتمام بتعدُّد الشرائع التي تلتقي حول الإيمان بالله الواحد، ثم إنه اهتمام بوحدة المصدر الإيحائي الذي جاءت منه هذه الشرائع السماوية.

إلا أن المقدسات الإسلامية، بكل ما ترمز إليه تعرَّضت ولا تزال تتعرَّض للانتهاك والتخريب.

فقد دمرت إسرائيل خمسة مساجد وعدداً من المدارس الدينية الإسلامية لتوسيع الحي اليهودي في المدينة القديمة. وفور احتلال القدس دمرت إسرائيل الحي المغربي بكامله لإقامة الساحة القائمة حالياً أمام ما تسميه حائط المبكى.

ولا تخفي إسرائيل نيّتها في تدمير المسجد الأقصى ذاته الذي بارك الله حوله، بحجة مختلقة وهي أنه مبني فوق أنقاض هيكل سليمان.

في الحادي والعشرين من شهر آب ـ أغسطس من عام (١٩٦٩م)؛ أي: بعد مرور عامين فقط على احتلال القدس، امتدت يد الإجرام الصهيونية إلى المسجد الأقصى وأشعلت فيه النار، وقد أتى الحريق على ١٥٠٠ متر مربع من أصل ٤٤٠٠ متر مربع هي مساحة المسجد الإجمالية، ودمَّر الحريق كذلك منبر صلاح الدين الأيوبي ومسجد عمر ومحراب زكريا، ومقام الأربعين، وثلاثة أروقة من الأعمدة والأقواس والسقف، وأجزاء من القبة الخشبية الداخلية، و٤٨ شباكاً مصنوعاً من الجص والزجاج الملون والسجاد، وسورة الإسراء المصنوعة من الفسيفساء. كان الهدف من وراء تلك العملية تدمير الأقصى، ولم تكن تلك المحاولة الأولى ولن تكون الأخيرة.

ثم إن في القدس القديمة صروحاً إسلامية تاريخية عريقة تتعرض للتداعي والتآكل وتمنع إسرائيل الأوقاف الإسلامية من ترميمها، وهذه الصروح هي:

* ٣٠ صرحاً أموياً وعباسياً.
* ٧٩ صرحاً مملوكياً.
* ٣٧ صرحاً عثمانياً.

وتعتبر الأمم المتحدة ومنظمة الأونسكو كل هذه الصروح الإسلامية والمسيحية، إضافة إلى قدسيتها الدينية، جزءاً من التراث الإنساني تجب المحافظة عليها. وقد اتخذت الأمم المتحدة في عام (١٩٦٨م) ـ أي: بعد عام من احتلال القدس ـ القرار رقم (٢٥٢) الذي يرفض الاحتلال والتهويد، ثم جددت هذا القرار بصيغة أقوى بقرار آخر رقم (٤٧٦) اتخذته في عام (١٩٨٠م)، كما اتخذت منظمة الأونسكو عدة قرارات حذرت فيها من مخاطر تغيير معالم المدينة وطمس هويتها والاعتداء على ثروتها الثقافية التاريخية.

أن وجود ١٩٩ صرحاً دينياً إسلامياً و٩٥٠ صرحاً دينياً مسيحياً في القدس يجسِّد، بصورة خاصة، أهمية هذه المدينة المقدسة بالنسبة للمسلمين وللمسيحيين معاً.

كما أن حرص الخليفة عمر على رفع الحظر الذي كان مفروضاً على اليهود لدخول المدينة والتعبد فيها، والتزام الحكام المسلمين بذلك حتى سقوط القدس بيد القوات الإسرائيلية في عام (١٩٦٧م)، يؤكِّد مدى احترام الإسلام لليهودية كرسالة سماوية.

إن هذه الروابط الإسلامية مع المسيحية واليهودية هي التي تجعل من القدس ـ من وجهة نظر إسلامية ـ ملتقًى روحياً للمؤمنين بالله الواحد، وهي التي تفيض على القدس أهمية معنوية وقداسة روحية سامية.

الفَصْلُ الخَامِسُ

قصتي مع البابا يوحنا بولس الثاني

لأول مرة، بعد ٣٤ عاماً من التوقف، دخل قطار حديدي محطة الفاتيكان، كان ذلك في (٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢م)، لم تكن المحطة مرتبطة بالطاقة الكهربائية، ولذلك جرى تأهيل قاطرة خاصة تعمل على الديزل لجرِّ قطار البابا يوحنا بولس الثاني إلى أول محطة كهربائية في شبكة السكك الحديدية في روما، والتي كانت تبعد حوالي الكيلومترين.

جرى تجهيز ست قاطرات لنقل البابا وضيوفه ـ وكنتُ واحداً منهم ـ إلى أسيزي، حيث ضريح القديس فرنسيس، أول لاهوتي أجرى حواراً دينياً مع علماء مسلمين؛ جرى ذلك أثناء حروب الفرنجة ـ الحروب الصليبية ـ في دمياط بمصر. ولعلَّ البابا الراحل اختار أسيزي بالذات ليطلق منها في عام (١٩٨٦م) مبادرته العالمية للحوار بين الأديان، ثم ليجدِّد هذه المبادرة في عام (٢٠٠٢م)، وقد أعدَّ البابا الحالي بنديكتوس السادس عشر لقاءً حوارياً في أسيزي إحياء لذكرى هذ المبادرة.

فمن هناك، أطلق يوحنا بولس الثاني نداءه إلى الإنسانية كلها «**بأن إحلال النظام الأدبي والاجتماعي المنكسر يقتضي بالضرورة تفاعلاً بين العدل والغفران؛ لأن أُسس سلام حقيقي تكمن في العدل وفي ذلك الشكل الخاص للمحبة؛ أي: الغفران**». ونقل البابا عن النبي أشعيا قوله: «**إن السلام في الواقع هو عمل عدل**».

وفي رأي البابا الراحل، كما قال يومذاك في خطابه، أن «الإرهاب ليس إلا وليد أصولية تتأتى من الاقتناع بالقدرة على فرض الرؤية الشخصية للحقيقة على الآخرين.

بيد أن الحقيقة حتى لو بلغناها ـ ويحصل هذا بطريقة محدودة وغير كاملة ـ لا يمكن فرضها أبداً. إن احترام ضمير الآخرين، حيث تنعكس صورة الله ذاتها، يسمح بإعلان الحقيقة عليهم كي يقبلوها بروح المسؤولية، أما فرض حقيقة مزعومة على الغير بالعنف فهو انتهاك لكرامة الكائن البشري، وهو في نهاية المطاف إهانة الإنسان الذي خلقه الله على صورته ومثاله».

أول مرة التقيتُ البابا يوحنا بولس الثاني كانت في عام (١٩٨٧م)، أثناء زيارة رسمية كان يقوم بها إلى مالطا، وكانت تلك أول زيارة يقوم بها بابا إلى هذه الجزيرة ـ الدولة. كنت في ذلك العام أشارك في مؤتمر دولي في العاصمة فاليتا. قدمني إليه رئيس أساقفة المدينة مع عدد من الأصدقاء المشاركين، في كاتدرائية القديس يوحنا التاريخية، وكان بعضهم مسلمين ومن دول عربية وأجنبية مختلفة. وعندما ذكر له رئيس الأساقفة اسمي واسم الدولة التي أنتمي اليها، استوقفني البابا وأمسك يدي بكلتا يديه وقال: من لبنان؟.. ماذا تفعلون للبنان؟. وكان ردِّي الفوري: بل ماذا تفعلون أنتم من أجل لبنان؟.

يومها كانت الحرب اللبنانية الداخلية تمرُّ في إحدى أسوأ مراحلها المدمرة؛ كان الضحايا يتساقطون في الشوارع، وكانت البيوت تنهار على مَن فيها من شدة القصف، وكانت المزارع تُحرق بما فيها من ضرع وزرع.

فوجئ البابا بالجواب، وعلت وجهَه حمرةٌ شديدة وقال: «سوف ترى

ماذا نفعل للبنان. . يا بني إن الوقت ليس مناسباً الآن لكلام أكثر». .

مرَّت سبع سنوات على ذلك اللقاء؛ وفي عام (١٩٩٤م) عُقد في الفاتيكان السينودس الخاص من أجل لبنان بدعوة من البابا، الذي أصرَّ على أن يحضره ممثلون عن الطوائف الإسلامية اللبنانية، ليس فقط بصفة مراقبين، ولكن بصفة مشاركين، وشكلت تلك الدعوة سابقة في تاريخ مؤتمرات السينودس التي عقدها الفاتيكان، إذ أنه لم يسبق أن دُعي مسلم إلى المشاركة في أيٍّ من هذه المؤتمرات، بما فيها تلك التي عُقدت من أجل قارة آسيا أو قارة أفريقيا، حيث يوجد مئات الملايين من المسلمين.

في جلسة الافتتاح تقدمتُ من البابا، وهو على المنصة، وقلت له: هل تذكر حديث مالطا؟.

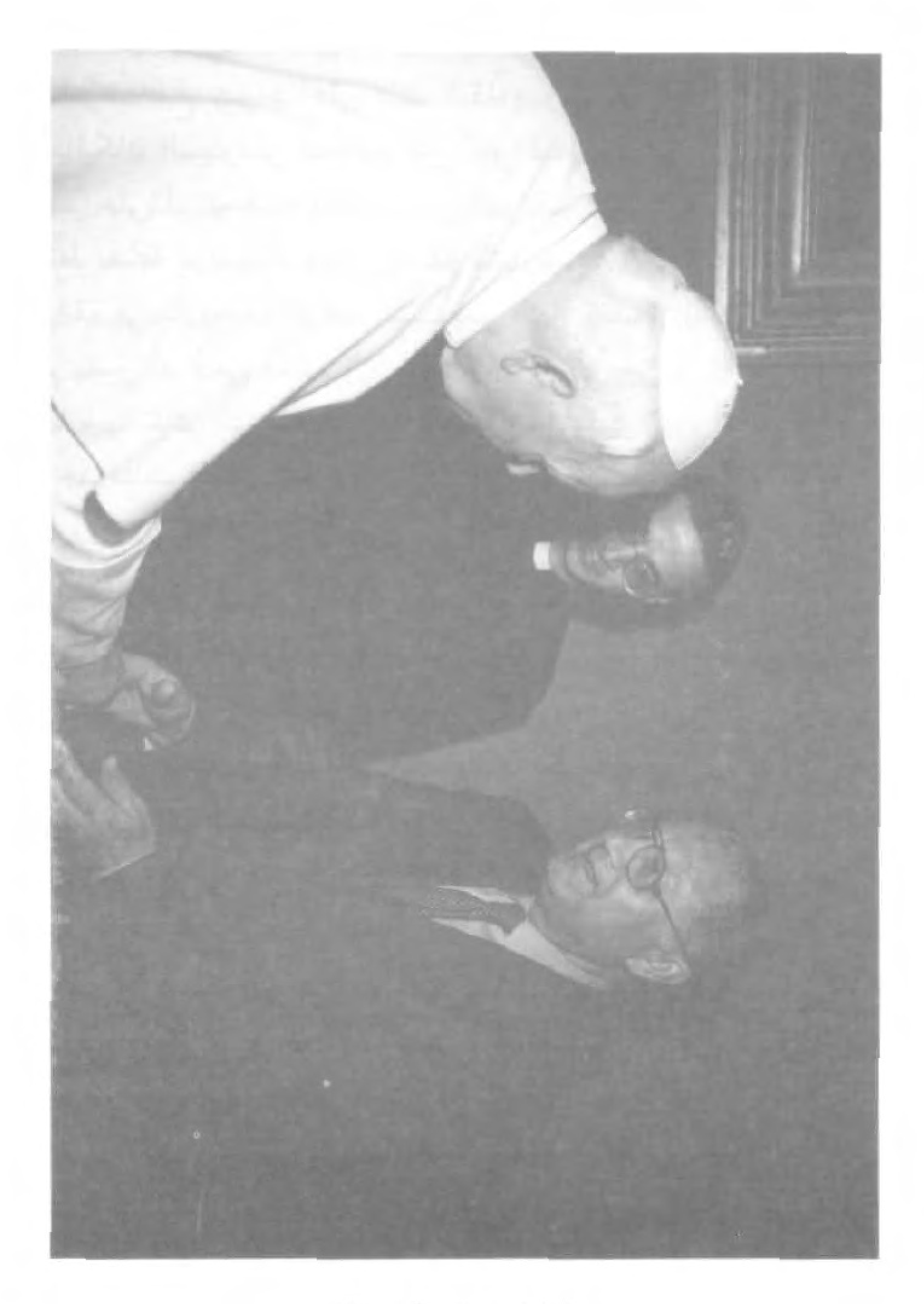
قال: أي حديث؟.

قلت له: الحديث عن لبنان.

وفجأة لمعت عينا البابا، وشدَّ على يدي وهو يقول: هو أنت؟. . لقد نسيتُ الاسم. أعذرني. ولكنني لم أنسَ أبداً ذلك الحديث العابر. كم أنا سعيد بالمشاركة الإسلامية في السينودس. . وبأن تكون أنت شخصياً معنا.

استمرَّ السينودس من أجل لبنان شهراً كاملاً، شاركت في ثلاثة أسابيع منه، كنت خلالها التقي البابا مرتين كل يوم، قبل الظهر وبعده، وكان يُبدي دائماً الكثير من الود والمحبة.

وفي عشاء خاص إلى مائدته في شقته بالفاتيكان، كنا ثمانية أشخاص فقط، فوجئت بمبادرة بابوية على درجة عالية من النبل؛ فقد حرص على أن لا يُقَدَّم أثناء الطعام سوى الماء وعصير البرتقال احتراماً منه لعقيدتنا الإسلامية.



مع البابا يوحنا بولس الثاني

وفي يوم الجمعة، أثناء انعقاد السينودس، أرسلتُ ورقة مكتوبة إلى أمين سر المؤتمر الكاردينال «سكوت»، أبلغته فيها أنني سوف أغادر القاعة لأداء صلاة الجمعة في مسجد روما، راجياً أن لا يُساء تفسير غيابي عن بقية اجتماع اليوم.

أشار الكاردينال إليّ عن بُعد بأن نعم، ولكنه سرعان ما استدرك، فبادر إلى إطْلاع البابا على الورقة، وكان جالساً إلى جانبه على المنصة، وبعد أن تبادل معه حديثاً قصيراً تقدم من الميكروفون وأبلغ المؤتمر بمضمون الورقة ، مضيفاً: «إن قداسة البابا يتمنى على ضيوْفنا المسلمين (كنا ثلاثة، القاضي عباس الحلبي، ممثلاً الطائفة الدرزية، والدكتور سعود المولى، ممثلاً المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى) أن يصلُّوا من أجل نجاح السينودس».

كانت تلك المبادرة سابقة بكل المقاييس؛ فالبابا رأسُ الكنيسة الكاثوليكية يتمنى على مسلم أن يصلي من أجل نجاح مؤتمر مسيحي يُعقد في حاضرة الفاتيكان برئاسته وبحضور مجموعة كبيرة من الكرادلة والبطاركة والمطارنة، وعلى مسمع منهم جميعاً!!.

أثناء العشاء الخاص، الذي أشرت اليه سابقاً، روى البابا يوحنا بولس الثاني قصة بناء المسجد والمركز الثقافي الإسلامي في روما. قال إن محافظ العاصمة الإيطالية زاره حاملاً رسالة رسمية من سفراء الدول الإسلامية يبدون فيها رغبتهم المشتركة في بناء المسجد، طالباً رأيه للتصرف على أساسه، فردَّ البابا بالموافقة، بل وذهب إلى أبعد من ذلك، إذ طلب من المحافظ أن يقدِّم الأرض لبناء المسجد والمركز الثقافي مجاناً.

كان ذلك مقدمة ليقول لي متسائلاً وبألم واضح: كيف يمكن تفسير منع المسيحيين من بناء كنائس في بعض الدول الإسلامية؟ وكيف يمكن تفسير مصادرة الإنجيل ومعاقبة حامله في بعض هذه الدول؟.

ولما شرحت له الموقف المبدئي الإسلامي من المسيحية، ومن بناء الكنائس وحثّ المسلمين حتى على المساهمة في بنائها، وفق ما جاء في العهدة النبوية لنصارى نجران، ولمّا بيّنْتُ له الموقف من الإنجيل الذي يقول عنه القرآن الكريم: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾، أبدى ارتياحه، ولكنه ظلَّ على تساؤله: كيف نفسِّر الحظر والمنع؟. لقد أجابت دول عربية عديدة عملياً على هذا التساؤل بمنح المسيحيين أراضٍ واسعةً لبناء كنائس عليها؛ حدث ذلك في الكويت والإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين، من دول الجزيرة العربية، كما حدث في دول عربية أخرى.

سألني البابا، الذي كان يجيد سبع لغات، عن مناسك الحج في الإسلام ومعانيها «الإبراهيمية»، كما سألني عن الفروقات بين السنة والشيعة، وعن الموقف الفقهي من الموحِّدين الدروز، كان مهتماً بأدق التفاصيل المعرفية، وهو العالِمُ اللاهوتي الكبير.

وعندما زار البابا لبنان في (مايو/أيار من عام ١٩٩٦م)، حيث أعلن وثيقة الإرشاد الرسولي كمحصلة نهائية لأعمال السينودس من أجل لبنان، أوْلى حرصاً صادقاً على الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين اللبنانيين، وشدَّد على أهمية تأصيل العلاقة المصيرية بين العرب المسلمين والمسيحيين، وعلى دور مسيحيي لبنان بصورة خاصة في تعزيز هذه العلاقة وتوثيقها؛ يومها ردَّد عبارته الشهيرة «إن لبنان هو أكثر من دولة، إنه رسالة»، ولكن ذلك لا يعني مع

الأسف أن اللبنانيين في سلوكهم السياسي والطائفي هم في مستوى هذه الرسالة النبيلة.

أما على صعيد العلاقات المسيحية ـ الإسلامية بصورة عامة، فقد اتخذ البابا عدداً من المبادرات، مدَّت جسوراً من التفاهم والتآخي لم يسبقه إليها أحد.

تصوروا مثلاً، لو أنه لم يقف من حيث المبدأ ضد ربط الدين ـ أي دين ـ بالإرهاب.

تصوروا لو أنه لم يبادر بعد جريمة (١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م) إلى إعطاء الضوء الأخضر لعقد لقاء إسلامي ـ مسيحي على مستوى عال في الفاتيكان، ليعلن اللقاء أن الدين ـ كل دين ـ براء من الإرهاب، وأنه لا يوجد دين إرهابي ولكن يوجد إرهابيون في كل دين، وبالتالي فإن الإسلام ليس مصدراً للإرهاب.

تصوروا لو أنه قال العكس من ذلك، كما ردَّد بعض قساوسة الحركة الصهيونية المسيحانية في الولايات المتحدة، أمثال الراحل جيري فولويل وفرانكلين غراهام وبات روبرتسون وهال ليندسي وسواهم..

بل تصوروا لو أنه سكت ولم يقلْ شيئاً، بحيث يمكن تفسير سكوته على أنه موافقة ضمنية: أين كانت العلاقات الإسلامية ـ المسيحية اليوم؟.

وتصوروا لو أن البابا لم يقف ضد الحرب الأميركية ـ البريطانية على العراق.

تصوروا لو أنه لم يقل إنها غير أخلاقية وغير مبررة.

تصوروا لو أنه قال العكس، كما كانت تريد واشنطن ولندن، ماذا كان قد حلَّ بالعلاقات الإسلامية ـ المسيحية؟. غير إنه من

المحزن أنه رغم ذلك تعرَّض مسيحيو الشرق، وخاصة مسيحيو العراق، إلى الاعتداء الآثم. وحتى عندما زلَّ لسان الرئيس الأميركي السابق جورج بوش وقال عن الحرب على العراق إنها «صليبية جديدة»، بادر البابا إلى وصفها بأنها حرب «منافية للقيم المسيحية». ومن المؤسف أن هذه المواقف الأخلاقية المبدئية لم تنعكس مفاعيلها الإيجابية على مسيحيي العراق، الذين دفعوا غالياً ثمن ردات فعل إسلامية على الاجتياح الأميركي، وكأنهم هم الذين استقدموا الاجتياح أو احتموا به، علماً بأنهم كانوا ضده.. وكانوا في الوقت ذاته من ضحاياه.

لقد حرص البابا يوحنا بولس الثاني، طوال ربع قرن، على تنفيذ قرارات وتوصيات الفاتيكان الثاني (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥م)، والتي أصبحت مبادئ عامة للكنيسة، وخاصة منها تلك التي تتعلق بعلاقات الكاثوليكية مع الأديان ومع العقائد الأخرى، وأرسى قواعد وسوابق كهنوتية عديدة تقيم جسوراً من الاحترام المتبادل مع المؤمنين بهذه الأديان والعقائد.

آخر مرة التقيتُ فيها البابا يوحنا بولس الثاني كانت في عام (٢٠٠١م)، في مؤتمر للحوار عُقد بحضوره في مدينة أسيزي، وبعد انتهاء المؤتمر دعا البابا مجموعة مختارة من المشاركين إلى غداء خاص في الفاتيكان، وبعد الغداء حرص على مصافحة كل مدعو مودعاً.

في ذلك الوقت، كان الضعف قد أنهك قواه البدنية وأضعف قدرته حتى على الوقوف، فودَّعنا جالساً، محني الرأس. وكان يقف إلى جانبه ليعرِّفه إلى ضيوفه نائب رئيس المجلس البابوي للحوار بين الأديان، الدكتور مايكل فيتزجيرالد (يشغل الآن منصب السفير

البابوي لدى مصر).. ولما وصل دوري وذكر له اسمي ردّ البابا مبتسماً: مايكل.. أنت تريد أن تعرِّفني إلى محمد السماك.. إنه صديقنا..

كان ذلك اللقاء الأخير، وكانت تلك العبارة الأخيرة التي سمعتها منه.

لقد ترك البابا الراحل رصيداً كبيراً من المفيد التمسك به وعدم إلقائه وراء ظهورنا منسياً. ومن مقتضيات الوفاء له مواصلة العمل معاً، مسلمين ومسيحيين، في لبنان وفي العالم العربي وفي مجتمعاتنا المختلفة في مشارق الأرض ومغاربها، على قاعدة المحبة والاحترام المتبادل.

فالبابا يوحنا بولس الثاني فَهِم، بروحانية سامية، قول السيد المسيح في إنجيل يوحنا (١٠/١٦): «إن لديّ خرافاً أخرى لا تنتمي إلى هذا القطيع»، وأدرك، بصفاء إيمانه، معنى وجود خراف أخرى؛ أي: معنى وجود الآخر ومعنى تعدد معارج الإيمان إلى الإلٰه الواحد، فكان انفتاحه على الآخر واحترامه له، تعبيراً عن قبوله للتنوُّع، وعن احترامه للاختلاف، فَفتح بذلك صفحة مشرقة في العلاقات الإسلامية ـ المسيحية تحمل توقيعه مع المحبة.

لم تكن صحة البابا جيدة دائماً؛ فلقد كان يشكو من مضاعفات حادث سيارة تعرَّض له أثناء عمله في مناجم بولندة وهو لا يزال شاباً، ثم أصيب بكسرين في كتفه وساقه وهو يمارس رياضة التزلج.

وأصيب بعد ذلك بمرض خبيث في الأمعاء، كما أصيب بداء المفاصل، إلا أنه استقوى على كل هذه الأمراض إلى أن أصيب بمرض الباركنسون فبدا وكأن «النصال تتكسر على النصال». ولا

شك في أن محاولة الاغتيال التي تعرَّض لها على يد شاب تركي (محمد أوقجا) كان عميلاً للمخابرات البلغارية في العهد الشيوعي، زادت من المضاعفات السلبية لهذه الأمراض، مع ذلك عفا عنه واستقبله فيما بعد بودّ.. مقدماً في ذلك ترجمة عملية لقول السيد المسيح «أحبوا أعداءكم». ومنذ ذلك الوقت شُدِّدت إجراءات الحراسة عليه خلال تنقلاته وزياراته الدولية، إلا أنه كان يستخفُّ بهذه الإجراءات بقوله: لم أتعرض إلى محاولة الاغتيال إلا في ساحة القديس بطرس!! وقد عزا الفضل في نجاته من محاولة الاغتيال إلى السيدة مريم، ولذلك توجه إلى البرتغال حيث أدى صلاة الشكر لله أمام تمثالها الشهير في «مزار فاطمة».

وكم كنت أتمنى لو أنه عاش حتى يرى كيف استطعنا في لبنان أن نجعل من عيد البشارة بالسيدة مريم، عندما بشَّرتها الملائكة بأنها تحمل بكلمة الله، عيداً وطنياً لما تتمتع به مريم العذراء من احترام في الإسلام والمسيحية معاً.

ملحق

نص كلمة محمد السماك

أمام السينودس الخاص حول الشرق الأوسط

قداسة البابا
أصحاب الغبطة والسيادة
أيها الأحبة،

عندما تلقيتُ الدعوة الكريمة إلى السينودس الخاص حول الشرق الأوسط، ارتسمت أمامي علامتا استفهام:

الأولى، هي: لماذا هذا السينودس من أجل مسيحيي الشرق؟.

والثانية، هي: ما معنى دعوة مسلم إلى السينودس، وأي دور لي فيه، وبعده؟.

بالنسبة للسؤال الأول فإن محاولة الإجابة عليه تطرح العديد من التساؤلات.

لو كان مسيحيو الشرق بخير، هل كانت هناك حاجة للدعوة إلى السينودس؟ ثم هل إن هذا السينودس قادر على طمأنتهم وعلى تثبيت أقدامهم في أرض آبائهم وأجدادهم، الأرض التي أشعَّ منها نور الإيمان المسيحي ليعمَّ العالم كله؟.

إنني، كمسلم، أُقدِّر عالياً اهتمام الفاتيكان بقضايا المسيحيين عامة، واهتمامه خاصة بقضية مسيحيي الشرق، مهد المسيحية ومنطلقها الأول، وفي الوقت ذاته آمل أن تؤدي مبادرة خادم الحرمين الشريفين، ملك المملكة العربية السعودية عبد الله بن

عبد العزيز، للحوار بين الأديان والثقافات إلى ترجمة الاهتمام العربي والإسلامي بهذه القضية بكل أبعادها الوطنية والدينية والإنسانية، لتتكامل المبادرتان، الفاتيكانية والإسلامية، في معالجة قضية مسيحيي الشرق باعتبارها قضية إسلامية مسيحية واحدة، خاصة وأنه، مع هذه المبادرة النبيلة، كانت هناك مبادرة جمعية الدعوة الإسلامية العالمية للتعارف بين الناس على قاعدة احترام الاختلافات، وكانت مبادرة أهل البيت إلى كلمة سواء على قاعدة المحبة، وهي مبادرات صادقة تعكس إرادة إسلامية جامعة أصيلة ومتأصلة في العقيدة الإسلامية للمحافظة على العيش الوطني بين المسلمين والمسيحيين.

فالمسلمون، وإن تعددت مذاهبهم، فإن إيمانهم واحد، ومن مقوّمات هذا الإيمان احترام الاختلاف ومودة النصارى تحديداً.

وبالنسبة للسؤال الثاني، لا أعتقد أني دُعيتُ إلى السينودس لأتعرف إلى ما يعانيه مسيحيون في بعض دول الشرق.. فمعاناتنا كشرقيين واحدة. اننا نعيش المعاناة معاً. نعيشها في بعض مظاهر تخلُّفنا الاجتماعي والسياسي، وفي تعثُّر نموِّنا الاقتصادي، وفي حالات التوتر الديني والمذهبي، غير أن ظاهرة استهداف المسيحي لدينه، وإن كانت ظاهرة محدودة وطارئة على مجتمعاتنا، إلا أنها ظاهرة خطيرة جداً، وأخطر ما فيها أنها قد تستدرج طرح معادلة المعاملة بالمثل، الأمر الذي يعمِّق التباعد والتنابذ.. ثم إنها ظاهرة غريبة عن الشرق، وأغرب ما فيها أنها تتناقض مع ما تقول به ثقافاتنا الدينية ودساتيرنا الوطنية، ذلك أن هذا الاستهداف يؤشِّر إلى أمرين خطيرين:



أثناء إلقاء الكلمة أمام سينودس الشرق الأوسط في الفاتيكان

الأمر الأول: هو محاولة تمزيق نسيج مجتمعاتنا الوطنية، ومحاولة تفكيكها وسحب خيوط نسيجها المتشابك الذي عرفته وعُرفت به منذ قرون عديدة.

أما الأمر الثاني: فهو محاولة تصوير الإسلام على غير حقيقته، وعلى عكس ما يقول به، وعلى نقيض ما يؤكِّد عليه أساساً من اعتبار الاختلاف بين الناس آية من آيات الله في الخلق، وتعبيراً حياً عن إرادة الله، وبالتالي من قبول بقاعدة التعدُّد ومن احترام لظاهرة التنوع، ومن إيمان بجميع الرسالات السماوية وبما أوحى الله فيها.

فالقرآن الكريم يقول: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران/١١٣، ١١٤].

إلا أنه ما يدعو إلى الأسف الشديد أنه بعد جريمة (١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١م)، انطلقت حملة ظالمة للتخويف من الإسلام، ووصلت تلك الحملة إلى الشرق أيضاً، فتسلَّل الخوف إلى بعض المسيحيين واستثارت القلق في نفوس بعض المسلمين، فتكامل ردًا الفعل في توسيع أبواب الهجرة التي يرفضونها جميعاً.

لقد عاش المسلمون والمسيحيون في الشرق بمحبة وسلام وازدهار جيلاً بعد جيل منذ ١٤٠٠ سنة، ولن يكون الشرق شرقاً من دون هذا العيش المشترك الذي أرسى قواعده الأولى النبي محمد ﷺ في عهده إلى نصارى نجران.

صحيح أن صعوبات اعترت هذا العيش في فترات استثنائية، كما أشارت إلى ذلك وثيقة الإرشاد الرسولي «رجاء جديد للبنان»، إلا أن المسلمين والمسيحيين كانوا دائماً يتغلبون عليها، ولا شك في

أن الشرق، بمسيحييه ومسلميه، سيكون في وضع أفضل كثيراً لو أن القوى الخارجية ترفع عنه يدها التي تعيث فيه فساداً وإفساداً.

هناك سلبيتان تطرحان المشكلة التي يواجهها مسيحيو الشرق:

سلبية عدم احترام حقوق المواطنة في المساواة الكاملة أمام القانون في بعض الدول. وسلبية عدم فهم روح التعاليم الإسلامية الخاصة بالعلاقة مع المسيحيين الذين وصفهم القرآن الكريم فقال ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، والذي برَّر هذه المودة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

والسلبيتان، بكل ما تحملانه من مضامين فكرية وسياسية سلبية، وبكل ما تفرزانه من مواقف عقدية وإجرائية، وما تتسببان به من أعمال مقلقة ومسيئة، تلحقان الأذى بنا جميعاً، مسيحيين ومسلمين، وتسيئان إلينا جميعاً في حياتنا المشتركة وفي مصيرنا الواحد، ولذلك فإننا مدعوُّون للعمل معاً من أجل تحويل السلبيتين إلى إيجابيتين، كما نفعل مع مؤسسات مسيحية دولية، مثل جمعية سانت أجيديو، أولاً، من خلال احترام أسس وقواعد المواطنة التي تحقِّق المساواة في الحقوق أولاً، ثم في الواجبات. وثانياً من خلال تسفيه ثقافة الغلوّ والتطرف من حيث هي رفض للآخر واحتكار للحقيقة والحق؛ وكذلك من خلال العمل على تعزيز ونشر ثقافة الاعتدال والمحبة والسماحة من حيث هي احترام للاختلاف في الدين والعقيدة، كما للاختلاف في اللغة والثقافة واللون والعنصر، ومن ثم نحتكم إلى الله فيما كنا فيه مختلفين، كما يعلِّمنا القرآن الكريم.

نعم مسيحيو الشرق في محنة، ولكنهم ليسوا وحدهم.

نعم مسيحيو الشرق يحتاجون إلى المؤازرة والدعم. ولكن ذلك



محتوى الكتاب

من منشورات دار النفائس للمؤلف

- الصهيونية المسيحية.
- الإرهاب والعنف السياسي.
- النبوءة والسياسة ـ ترجمة عن الإنكليزية.
- موقع الإسلام في صراع الحضارات.
- التحولات المشرقية في السياسة المغربية.
- مقدمة إلى الحوار الإسلامي ـ المسيحي.
- يد الله ـ ترجمة عن الإنكليزية.
- الدين في القرار الأميركي.
- المسلمون والتحديات المعاصرة.
- الاستغلال الديني في الصراع السياسي.
- الفاتيكان والعلاقات مع الإسلام.

رقم: 577 - 12



خلق الله الإنسان، ووهبه هذا الكوكب الجميل، الأرض، ليسير في مناكبها ويأكل من رزقه وإليه عزَّ وجل المعاد والحساب. وخاطب الناس قائلاً: «**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا..**»

ولكن النفس الإنسانية التي ألهمها الله فجورها وتقواها، جعلت الإنسان الأول يتقاتل مع أخيه الإنسان. واستمر الصراع باستمرار البشر على الأرض. ومن أكثر الصراعات والعلاقات المعقَّدة بين البشر علاقات المسلمين بالمسيحيين، ومنها العلاقات بين المسلمين والفاتيكان.

وفي هذا الكتيب يحاول المؤلف أن يختصر العلاقات التاريخية ليصل إلى العلاقات الحاليَّة، ويتناول هذه العلاقات تحت عناوين: البابا والفاتيكان، ودور الفاتيكان في العلاقات الإسلامية المسيحية، والفاتيكان والقدس، والقدس في الإسلام، وقصة المؤلف مع البابا يوحنا بولس الثاني.

والمؤلف كاتب متخصص في الشؤون الإسلامية، وناشط في الحوار بين أتباع الأديان، ويشغل منصب أمين عام اللجنة الوطنية الإسلامية ـ المسيحية للحوار،

